نظرية الاتصال
في الرسالة الإسلامية

دراسة في الوحي والرؤيا والإعلام الاجتماعي



الدكتور
سر الختم عثمان الأمين

دار النشر للجامعات

نظرية الاتصال
في
الرسالة الإسلامية

(دراسة في الوحي والرؤيا والإعلام الاجتماعي)

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الأمين، سر الختم عثمان
نظرية الاتصال في الرسالة الإسلامية: دراسة في الوحي والرؤيا والإعلام الاجتماعي/د. سر الختم عثمان الأمين - ط1 – القاهرة، دار النشر للجامعات، 2009
144ص ؛ 20سم.

1- الإعلام الإسلامي 2- الرؤيا
أ- العنوان 306.4

* تــاريخ الإصـدار: **1430هـ - 2009م**
* الناشـــر: **دار النشر للجامعات**
* رقـم الإيـداع: **2009/17110**
* الكـود: **2/300**

دار النشر للجامعات



ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
ت: 26347976 – 26321753 ف: 26440094
E-mail: darannshr@link.net

نظرية الاتصال

في

الرسالة الإسلامية

(دراسة في الوحي والرؤيا والإعلام الاجتماعي)

الدكتور

سر الختم عثمان الأمين

بسم اللـه الرحمن الرحيم

﴿قال رب اشرح لي صدري (25) ويسر لي أمري (26) واحلل عقدة من لساني (27) يفقهوا قولي (28)﴾

[طه]

صدق اللـه العظيم


الإهـــــداء
إلى كل من آمن...
وَصَدَّقَ إيمَانَهُ
بعَمَلِ الصَّالحِاتْ
المؤلف

المقدِّمة المنهجية
[في أبحاث الاتصال وتأصيل علم الإعلام]

أولا: عناصر الاتصال:

لم يستقر بعد علم الإعلام كعلم مستقل في مناهج دراساته ذلك الاستقلال الكامل رغم مرور قرن كامل على بداية تدريسه في التعليم الجامعي كحقل معترف به من بين حقول الدراسات الاجتماعية. ورغم أن لعلم الإعلام نظرياته ونظمه وفلسفته إلَّا أن أبحاث الاتصال لم تتطوَّر بالقدر الذي يؤسس منهجية واضحة للدراسات الإعلامية تميّزها عن سائر العلوم الاجتماعية. رغم أنه قد بدأ في الآونة الأخيرة العمل في تأسيس مناهج للدراسات الإعلامية.

ومع ذلك يمكننا أن نحدد طبيعة مناهج الدراسات الإعلامية اعتمادًا على النماذج الشارحة لعناصر العملية الاتصالية، فمثلًا هذه العناصر كما نراها في نموذج هارولد لاسويل الذي يقول من / يقول ماذا / وبأي وسيلة /وبأي تأثير.

فإذا كان (من؟) هو المرسل، فإن هناك دراسات يمكن أن تقوم حول (المرسل). فالمرسل الإذاعي والمرسل الصحفي، والسياسات

التي تحكم عمل المرسل داخل المؤسسة الصحفية أو الإعلامية، من حيث علاقته بالمالك للمؤسسة أو القيم العليا، أو الإستراتيجية الإعلامية المرسومة لتلك المؤسسة تشكل حقول دراسات المرسل كعنصر أساسي في عملية الاتصال وإذا كان (ماذا؟) هو الرسالة (من يقول ماذا ؟) تأتي مناهج الدراسات الإعلامية إلى (ماذا ؟) فتقوم بتحليل محتواها أو تقويم أهدافها، أو تحليل اتجاهاتها، ومؤثرات صياغة الرسالة على هذا النحو، أو لغة الرسالة الإعلامية، أو حتى الآثار المتوقعة من قوة الرسالة وضعفها (أي: دراسة الفاعلية فيها).

وبأي وسيلة ؟ الوسيلة كعنصر أساسي من عناصر الاتصال تعتبر أداة مهمة في النقل وبالتالي موضوعًا لابد من البحث فيه علميًّا.

فتتخذ مناهج الدراسات الإعلامية من القنوات والوسائل الإعلامية والمؤسسات المنشئة لها والمالكة موضوعًا لدراساتها وأبحاثها. وهذه الأبحاث تتناول الملكية وعلاقتها بالرسالة وبالمرسل والتمويل وعمليات الإنتاج وحساب كلفتها، وأثر ذلك على استمرار المؤسسة الإعلامية في المحافظة على نشاطها. وهي تقع في نطاق دراسات الإدارة الإعلامية.

أما عنصر الاتصال الذي وصفه "لاسويل" بقوله: إلى مَنْ؟ فإنَّ أكثر الدراسات الإعلامية تجري حوله، وهو عنصر الجمهور بمؤثرات

مهمة عليه، **مثل:**

أ - العادات الاتصالية عند الجمهور.

ب - اهتماماته ومثيراته.

ج - أوقات التعرض لدى الجمهور.

د - نسب التعرض في جمهور الوسيلة الإعلامية.

هـ - أعداد الجمهور وفئاته وقطاعاته وآراؤه، لكل رسالة.

ونتائج هذه الدراسات تفيد المرسل الإعلامي بالدرجة الأولى؛ لأنها تمثل تغذية علمية لتوجيه تخطيطه الإعلامي لرسالته من خلال نتائج الأبحاث العلمية التي تجرى على الجمهور بما يعدل اتجاهات الرسالة ومحتواها ولغتها بما يتناسب وآراء الجمهور وتطلعاته.

والعنصر الأخير في نموذج (لاسويل) (بأي تأثير) عنصر (التأثير)؛ إذ تعالج دراسات الإعلام العلمية التأثر كرد فعل لدى الجمهور تجاه محتوى الرسالة الإعلامية، وهو رد فعل يتمثل في ظهور أثرها في سلوك المتلقي، وبذا تنحو إلى الدراسات السلوكية والنفسية لقياس هذه الآثار الكامنة في الجمهور أو الظاهرة التي يمكن ملاحظتها [1].

(1) عصام سليمان مرسي، المدخل إلى علم الاتصال، أربد، الأردن، 1986م، ص137.

ودراسات التأثير من أخصب حقول الدراسات الإعلامية وتتعلق دائمًا بتطبيقات عملية لنظريات الاتصال، وقد ركز عليها الباحثون الإعلاميون الأوائل عقب الحرب العالمية الثانية بسبب تأثير الدعاية القوي على هذه الحرب ونتائج معاركها مما جعل بحث التأثير همًّا أساسيًّا لهم.

وبالطبع هناك فرق بين التأثير والأثر، فالتأثير هو العمل الدائب الذي ينشد تغيير وتعديل مفاهيم ومدركات وسلوك الجمهور، وتقوم به الوسيلة الإعلامية. أما الأثر فهو ما يحدث فعلًا من تغيير وتعديل في السلوك ويبقى ظاهرًا في الجمهور بعد ذلك.

ثانيًا: مادة البحث الإعلامي:

إذا كان (موضوع البحث) هو التعرف على ظاهرة ما في أي علم من العلوم، فإن التعرف على المرسل أو الوسيلة أو الرسالة، والجمهور أو الأثر عليه هي حقول الدراسات الإعلامية التى نجد فيها ظواهر جديرة بالدراسة العلمية، حيث يقوم الباحث باختيار واحدة منها من بين ظواهر العنصر الاتصالي.

فبالتعرف على حقيقة مادة الظواهر تكون الإجابة على: كيف حدث هذا؟ ولماذا حدث هذا؟ وأين حدث هذا؟ وكم من هذا قد حدث؟ وماذا فعل من أثر؟ وماذا ترتب عليه من نتائج؟!

والغرض من ذلك كشف الحقائق في ظواهر تبدو أو تكمن داخل عناصر الاتصال وأركانه لاستجلاء حقائقها.

وتستخدم مناهج البحث العلمي المناسبة للدراسات الإعلامية لتقويم الطريقة التي يفكر الباحث للوصول بها إلى الحقيقة وفق خطوات محددة علميًّا ومضبوطة بأدوات بحثية محكمة تتناول الظاهرة موضع الدراسة والبحث بالتشريح العلمي.

فعند اختيار (مادة البحث) أي: الظاهرة المراد دراستها فإنَّ على الباحث حينئذٍ أن يسأل نفسه: أين تقع هذه الظاهرة.. في أي عنصر من عناصر الاتصال؟ فيحدد موقع الظاهرة، وبالتالي يمكنه تحديد طريقة البحث فيها وفق خصائص العنصر المعيّن.

ثالثًا: المنهج في البحث الإعلامي:

للإجابة على هذا السؤال لابد من تعريف المنهج نفسه، فالمنهج [مجموعة من الإجراءات الذهنية التي يتصورها الباحث] في الوسيلة، أو الرسالة أو الجمهور أو التأثير أو المؤسسة الإعلامية أو غير ذلك من العناصر قبل أن يبدأ بحثه، ويقوم بتقويم ومراجعة الإجراءات، ويختار المناسب منها للعنصر الاتصالي المراد دراسته بناء على طبيعة الظاهرة المراد البحث فيها.

فالعنصر الاتصالي موضع الدراسة هو الذي يحدد للباحث

اختياراته من بين مناهج البحث العلمي، فلا يتم المنهج في أي دراسة إعلامية اعتباطًا إلّا بعد مطابقته مع العنصر الذي سيشكل مادة البحث في دراسة الباحث، وهذا العنصر الاتصالي تحدّده الظاهرة المراد البحث فيها، حيث يكون العنصر الاتصالي هو الإطار العام الذي تجد الظاهرة داخله.

والبحث (Research): هو العملية الفعلية التي يواجه الباحث بها العنصر الاتصالي المعين الذي تَكْمُنْ داخله الظاهرة المراد دراستها، فالمادة المكونة للظاهرة موضع البحث تتم مقابلتها بالطريقة التي تكشف الحقيقة الكامنة فيها، وهذه الطريقة هي المنهج.

فالمنهج هو عبارة عن إجراءات علمية في عالم الذهن. والتفكير العلمي هو الذي يقود هذه الإجراءات إلى أن يشرِّحْ هذا التفكير (العنصر الاتصالي) الذي نجد (مادة البحث) داخله تشريحًا منهجيًّا في مباحث ومطالب تطلب الحقائق المفقودة فيها فتظهر بإجراءات التفكير العلمي، فهي الطريق العملي لكشف معلومات غائبة داخل الظاهرة وفي مادة العنصر الاتصالي موضع البحث.

وبذلك نكون قد وضعنا المنهج أو الطريقة الإجرائية العملية للوصول إلى حقائق غائبة، يتم نقلها من عالم الذهن إلى واقع التجربة التطبيقية.

وبهذه الطريقة وحدها ننقل الحقائق المفترضة في تساؤلات البحث إلى إجابات علمية لدراسة الواقع العملي في عالم الحس بالتطبيق للمنهج على المادة المستهدفة بالدراسة، وهذا ما نسميه (بالبحث)، فهو بحث عن الحقيقة بأسلوب مخطط نسميه المنهج، وبعمليات منظمة فرعية تقود إلى الحقيقة نسميها إجراءات البحث.

فالمنهج في الدراسة الإعلامية يقوم على الظاهرة المراد دراستها، والظاهرة يتحدد موقعها في العنصر الاتصالي الذي تنتمي إليه، ومن ثم يتم اختيار المنهج المناسب للعنصر الذي هو موضع التشريح والبحث والتطبيق من بين عناصر الاتصال، سواء كانت الدراسة تتناول بالبحث الوسيلة أو الرسالة أو الجمهور أو القائم بالاتصال أو المؤسسة الإعلامية أو التأثير أو رجع الصدى أو عنصر واحد فأكثر من هذه العناصر.

رابعًا: المضمون المنهجي للبحث الإعلامي:

إذا كانت المعرفة هي عملية ذهنية تدور بين طرفين (الباحث) و(البحث)، فالباحث كائن حي ومفكر، وله عقل يقوم بترتيب قضايا المعرفة وفي الظاهرة المراد دراستها علميًّا ترتيبًا يفضي إلى الحقيقة، وإذا عرفنا كيف يقيّد الباحث نشاطه العقلي في مادة البحث بمسار معين له خطوات وإجراءات تسدد عمله وسمينا هذا المسار بالمنهج، فإن

للعقل دورًا يقوم به وسط إجراءات مسار البحث، أي: عند (تطبيق المنهج)، وهذا الدور هو ما نسميه ونعنيه بكلمة (البحث)، وهو دور يستخدم أدوات مثل الملاحظة أو المراقبة، والسؤال المستفسر عن الظاهرة ونسميه (الاستبيان) لأنه سؤال يبيّن حقيقة ما في الظاهرة، فهو أداة حصول على حقائق فرعية يؤدي مجموعها إلى خدمة وظيفة الوصول إلى (الحل العلمي) لعقدة البحث التي تسمى مشكلة البحث، وهي الظاهرة الرئيسة التي تشكل موضع الحقيقة الغائبة والمراد الحصول عليها، وتدور حولها أنشطة الأدوات بالملاحظة والمراقبة والاستبيان والسؤال للوصول إلى حقيقة الظاهرة.

فالبحث الذي لا يحل مشكلة ما هو بحث ولكنه ليس بحثًا علميًّا لأنه غير محدد الهدف، أو المسار، أو الإجراءات والأدوات المعنية لحل مشكلة في الحياة.

وفي المضمون المنهجي للدراسة الإعلامية نجد ما يلي:

إن كانت الدراسة ميدانية تطبيقية على واقع معيش محسوس، فإنَّ مثل هذه الدراسة تكون متبعة للمنهج الاختباري، وتقوم بدراسة الواقع بتجريبه بالسؤال والملاحظة والقياس الإحصائي.

أمـا إذا كانـت الدراسـة تعنـي بالمعرفـة العلميـة الصـرفة فتنحـو نحـو (الاسـتنباط) مثـل دراسـات التأصـيل في علـوم الاتصـال والإعـلام، فهـي

تعنى بالبحث على مستوى الأفكار والقيم التي تحكم الأداء الإعلامي أو أنماط السلوك البشري الاتصالي وفق قيم إنسانية أو عقدية، أو اجتماعية معينة تعبر عن نظام إعلامي قائم بذاته مستمد من هذه القيم.

وقد تجمع الدراسة بين صفتي الدراسة الاختبارية والدراسة العقلية الاستنباطية.

وفي فلسفة العلوم تعبر الدراسة الاستنباطية عن الروح المثالية في العلم، وهو تيار علمي قائم بذاته، والدراسات التجريبية الاختبارية دراسات تنتمي إلى التيار المادي التجريبي.

وتقوم دراسات تأصيل علوم الإعلام على مقدمات عقائدية أو قيم أخلاقية أو معارف إسلامية في الثقافة أو الفكر الإسلامي أو الدراسات الإسلامية مثل ربط علوم الاتصال بالحديث وعلومه ومصطلحه، ومناهج هذا العلم بأصول المنهج الشرعي مثل التواتر والدراية والرواية والسند، فمثل هذا الربط يضيف لهذه العلوم – أي: علوم الاتصال- مصدرًا ومعينًا فكريًّا جديدًا عليه ؛ لأن أوائل رواد علوم الاتصال لم تكن لديهم مصادر دراسات عقدية ثرية كما في علوم الإسلام التي ذكرناها فلجئوا إلى علم النفس وعلم الاجتماع كبديل للقيم العقدية.

ويقوم الباحث في تأصيل منهجية الدراسات الإعلامية بوضع مقدمات منطقية عن طريق الاستنباط العقلي من العلوم الإسلامية الأساسية ومن مصادر التشريع المعتبرة عند الفقهاء والأصوليين، ويقوم باعتبار هذه المقدمات المنطقية هي الأصل الذي يقاس عليه قواعد الأداء الإعلامي في بحثه، ويسترشد بالمنهج العلمي الحديث في هذا القياس المقارن ليصل إلى نتائج عملية قابلة للتطبيق في بحثه، فيكون بذلك قد قدَّم علمًا مؤصلًا في دراسات الإعلام.

خامسًا: العلاقة بين الدعوة والإعلام:

بتعريف بسيط نقول: إن الدعوة هي توجيه نداء بأساليب مختلفة إلى أناس إما ليدخلوا في دين الإسلام أو لتثبيتهم على هذا الدين وتمتين التزامهم بتعاليمه وأحكامه.

وهي في الجمهور المستهدف تقصد بنداء غير المسلمين وكذلك المسلمين وكلاهما عن طريق التعريف الصحيح بالإسلام والإقناع بضرورة الالتزام بما جاء به نبيُّ الإسلام محمد ﷺ من الكتاب والحكمة.

بهذا التعريف يتضح لنا أنها نوع من الإعلام (العقائدي) أو العقدي المرتبط بتوحيد الله عز وجل ورسالة سيدنا محمد ﷺ، فالدعوة إعلام بالإسلام، والإعلام الملتزم بمقاصد الشرع دعوة إلى

الـلـه، فلا فرق بين الدعوة والإعلام إلَّا على المستوى اللفظي والاصطلاحي، فالإعلام يستهدف جميع الناس، وكذلك الدعوة تستهدفهم جميعًا، وإنما انتشر لفظ الإعلام وذاع واشتهر لأنه لفظ اقترن بوسائل الاتصال الحديثة، وظن البعض أن وسائل الاتصال القديمة المتمثلة في المسجد ومنبره ومآذنه والحج ومؤتمراته وشعائره ومواسم البلاغ فيه والتعارف والتعليم ومؤسساته والخطابة والمناظرة والمطارحة وأسواقها ليست من الإعلام في شيء؛ بينما هي في عمق العملية الاتصالية المؤثرة تأثيرًا بالغًا على الناس باعتبارها (اتصالا مباشرًا) بدون وسيط، وهي أقوى أنواع الاتصال والإعلام حسب ما تؤكد نظريات علوم الاتصال الحديثة.

إذًا نفرغ من جدلية أن الدعوة ليست إعلامًا أو العكس، بل هما وجهان لعملة واحدة.

فالدراسات الدعوية - بمعنى التخصص فيها وإجراء البحوث لإنجاح الدعوة ورسالتها، وبلوغها في الناس مقاصدها، والوسائل المستهدفة في ذلك، وطرائق تنظيم المؤسسات الدعوية إداريًّا ومهنيًّا وثقافيًّا والبحث في كل ذلك- لا يمكن فصلها عن الدراسات الإعلامية أو عن إجراء بحوث علوم الاتصال؛ لأن بينهما ارتباطًا عضويًّا في الأهداف والمقاصد والوسائل والمؤسسات، والأصول

والمناهج والسياسات والبرامج، إذ لا دعوة بلا إعلام عن الإسلام، ولا إعلام بلا دعوة لمقاصد الشرع والشارع في العباد والبلاد، بل إنه إذا ما استطعنا أن نجعل الإسلام محتوىً للرسالة الإعلامية في أي وسيلة من وسائل الاتصال الحديثة فإننا بذلك نقوم بعمل دعوي شامل، وإذا ما تم ضبط هذه الرسالة بضوابط الشرع فإن الإعلام كله دعوة والدعوة كلها إعلام إسلامي، ولذلك فإن الأوفق أن يكون مسمى الدعوة ومسمى الإعلام عند المسلمين شيء واحد له اسمان وعلم له اصطلاحان.

من هذه المقدمة نخلص إلى أن البحث في علوم الدعوة من حيث إنها دراسات إعلامية ذات طبيعة اتصالية تشمل حقولًا منها:

(أ) (حقل أصول علم الدعوة) من مصادر الدراسات الشرعية المتمثلة في علوم الإسلام الأساسية.

(ب) (حقل مناهج علم الدعوة) وتؤخذ من أصول الفقه ومقاصد الشريعة وعلم التوحيد والعقائد والدين المقارن، ومن علم التربية في الإسلام.

(جـ) (حقل الدراسات النفسانية) مثل علم النفس الدعوي وعلم الاجتماع الدعوي.

(د) حقل النظم الإسلامية: النظام الاجتماعي الإسلامي والنظام

السياسي والدستوري الإسلامي والنظام الاقتصادي للمجتمع المسلم والنظام الثقافي لذلك المجتمع والعلوم الأسرية الإسلامية، وهي أصول الثقافة الإسلامية.

(هـ) دراسات الغزو الفكري والمذاهب الهدامة والاختراق الثقافي والتغريب والاستشراق والتنصير والتيارات الخفية، وكل هذه علوم تخدم الدعوة العالمية.

(و) حقل الإدارة الدعوية والتخطيط الاقتصادي الدعوي، وهذا لخدمة مؤسسات الدعوة ومنظمات الوحدة الإسلامية وجمعيات العمل التطوعي الإسلامي ومقاومة أنشطة الهيئات العالمية المؤثرة في نشر الإسلام سلبًا.

(ز) وسائل الدعوة، وهي حقل خصيب ذو ارتباط مباشر بوسائل البلاغ الإسلامي التقليدية بدءًا من المسجد، وتشمل وسائل الإعلام المعاصرة ووسائل الاتصالات الحديثة واستخداماتها في نشر الدعوة الإسلامية.

(ح) حقل الأساليب الدعوية، وهو حقل خصيب يجمع كل ما استفاد به علم الدعوة من العلوم الاجتماعية والنفسية واللغوية والفكرية في تطوير الدعوة بأساليب متجددة ومتطورة وممنهجة ومخططة.

(ط) حقل (العناصر والأنماط)، وهو حقل المزاوجة بين نظريات الاتصال وأساليب الدعوة والاستفادة من تطور النظريات الإعلامية في استخدامات علوم الدعوة وإنجاح أساليبها.

(ي) حقل دراسات الفكر الإسلامي والتجديد فيه وتطويره ومواكبة العلم، وحل قضايا العصر المستجدة بحلول إسلامية تناسب الواقع المتسارع الخطى في العالم من حول المسلمين، وهو ما يسمى بالتجديد في الفقه.

وإذا انتقلنا من الحقول الخاصة بالدراسات البحثية في علم الدعوة والإعلام نرى أن: أركان العملية الدعوية هي عناصر الظواهر التي تجرى فيها البحوث والدراسات الدعوية، ويمكن تحديدها كما يلي:

1. مصادر المعرفة الدعوية [أصول الدعوة من الكتاب والسُنَّة والقياس والإجماع].

2. الداعي (المرسل) [القائم بالاتصال الدعوي].

3. المدعو (المتلقي) [جمهور المدعوين من المسلمين أو غيرهم].

4. الوسيلة المستخدمة (وسيلة الاتصال)، أو الوسيلة الدعوية.

5. موضوع الدعوة (الخطاب الدعوي) (الرسالة الإعلامية).

6. جمهور الدعوة [مؤمنون يتم تذكيرهم بالدين، أو كفار تتم دعوتهم للدخول فيه].

7. أثر الدعوة على المتلقي [وهو موضوع يحدث قياس الرأي العام حول قضايا الإسلام في المجتمع].

8. التغذية العائدة من المدعوين.

ولا تخرج الظواهر المدروسة في علم الدعوة الحديثة عن هذه العناصر الثمانية المذكورة، وهنا لابد من التنبيه إلى أنه لابد من التجديد في استخدام عناصر ووسائل البحث العلمي الحديث واستخدام تقنية المعلومات في الدراسات والبحوث الدعوية، خاصة فيما يتعلق بالجمهور المستهدف بالدعوة سواء كان مسلمون مستهدفين بالدعوة للثبات على تعاليم وأخلاق ومثل دينهم أو مستهدفين لتحصينهم ووقايتهم من الإعلام المضاد والغزو الفكري الخارجي، أو كان ذلك الجمهور غير مسلم مستهدف إدخالهم إلى دين الله بدراسة مسبقة لمجتمع الكفر المراد نقله إلى دائرة الإيمان بتصميم خطاب دعوي خاص يناسب واقعهم للتعريف بالإسلام والإقناع بصحة عقيدته، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام إن كانت موجودة في المجتمع المستهدف بالدعوة إليه.

وكل عنصر من هذه العناصر الدعوية يمكن أن يقع فيها موضوع

بحث الباحث، وقد يجمع البحث الواحد أكثر من عنصر من هذه العناصر في عمل علمي واحد.

أما رسائل البلاغ الإسلامي الخاص بنشر المعلومات الأساسية عن علوم الإسلام مثل موضوعات الفقه الخاص بالعبادات والمعاملات والسيرة والتاريخ الإسلامي وتاريخ الصحابة وتاريخ التشريع والفقه وتاريخ أعلام الإسلام القدماء والمعاصرين والعقائد والسير والأخبار وقصص الأنبياء والفتاوى وعلوم القرآن الكريم والتفسير والحديث النبوي والمصطلح وأصول الفقه، وغير ذلك من المعلومات الأساسية عن الإسلام وشرائعه، فتدخل في الإعلام الإسلامي التعليمي مثلها مثل البرامج، أي: الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي وحوار الحضارات وغير ذلك مما يدخل في نشر المعرفة الإسلامية، وليس هذا هو المقصود بعلم الدعوة، وإنما يعتبر هذا جزء من الرسالة الإعلامية لأغراض الدعوة، ويسميها الدعاة (محتوى الخطاب الدعوي) للمسلمين، وتقع في الإعلام الإسلامي في نطاق (الاتصال التعليمي).

ونخلص إلى القول بأن الاختلاف بين الدعوة والإعلام ليس اختلافاً اصطلاحيًّا؛ وإنما هو اختلاف لفظي لغوي لأغراض تحديد المعنى المستهدف بكل من اللفظين لأغراض (الحصر) للمعاني،

وبإقصاء ما ليس في حدود البحث أو الدراسة أو التعلم في كل لفظ ليتمايز عن الآخر حسب الأهداف المراد تحقيقها فقط، وإلا فالدعوة إعلام، والإعلام عند المسلمين دعوة إلى الحق أو إلى التمسك به أكثر للمؤمنين به أصلًا.

أما (الإعلام الإسلامي) كمصطلح فما هو إلا الإعلام الذي يقوم على مقاصد الإسلام ويخطط له بما يتوافق وجوهر الحق والحقيقة فيه، ويستخدم كل وسائل الاتصال الحديثة والتقليدية، وفي ذلك يتفق مع (الإعلام) على إطلاقه، وهو الإعلام المحايد الذي ينقل الحق كما ينقل الباطل، ويستوي المنقول من المعلومات من كليهما عند ناقله، بينما لا يوجد هذا الاستواء عند المسلم، ولأن ناقل الكفر ليس بالضرورة كافرًا حسب المقصد، ولكن ناشر الكفر والمروج له بائن المقاصد في كونه استحب الكفر على الإيمان بترويجه بضاعة الشيطان وإعراضه عن شرع الرحمن وعدم نشره للحق.

فالإعلام الإسلامي ليس (محايدًا) وإنما هو إعلام ملتزم جانب الحق في المصادر والوسائل والمقاصد، وبذلك يفترق الإعلام الإسلامي عن الإعلام المحايد مع كونهما اصطلاحًا واحدًا كلاهما (إعلام) ويستخدمان نظامًا واحدًا أو أكثر من نظم الاتصال سواء كان اتصالًا مباشرًا أو عبر وسيط (وسيلة)، إذًا الإعلام الإسلامي هو نظام

يرتبط بفلسفة فكرية نابعة من الإسلام ولا يحيد عنه لا في المصادر ولا في الوسائل ولا في المقاصد، وهو بذلك نظام للاتصال الثقافي والعلمي والفكري والوجداني والإخباري خاص بمجتمع يحتكم إلى نظام الإسلام في حياة الحكام والمحكومين، وهو بذلك نظرية من نظريات الاتصال بلا جدال.

كما أنه ليس مطابقًا للدعوة؛ فالفرق بين الإعلام الإسلامي والدعوة هو: أن الأول نظام ونظرية للاتصال يتوافق مع الإسلام في كل بنائه ووظيفته وغاياته، وأن الثاني مهنة يومية وفن من فنون الاتصال التطبيقي لإبلاغ الإسلام وشرائطه أو التعريف به ليدخل غير المؤمنين به فيه بوسائط متعددة وفي ظروف متباينة.

وخلاصة القول: [إن الدعوة إعلامٌ متخصصٌ للتعريف بالإسلام أو التذكير به]. والتعريف به لمن هم خارج دائرة الإيمان بالله ورسوله والتذكير بأحكامه للمسلمين لتثبيتهم على الحق وتعليمهم أكثر وأعمق مما يعرفون عنه.

سادسًا: تأصيل علوم الدعوة والإعلام:

التأصيل هو جعل الأمر أصليًّا، أي: مربوطًا بأصله، وهو اسم على وزن تفعيل وصيغة من صيغ الإطلاق كتسليم وترتيل وتجويد،

ومعناه بالجملة: العودة إلى الأصول. **ويقولون:** أصيل. وهو خلاف الدخيل.

ويرى البعض أن الأصالة هي: ضد التقليد للآخرين. والأصل هو معدن الشيء وجوهره وبذرته الأولى حيث نشأ.

وبعض الأمم ترى التأصيل ربطًا لشئونها كلها بجذور ثقافتها الأصلية ونظام حياتها وفكرها الموجد لكيانها الاجتماعي والثقافي.

وكما ذكر في المبحث الأول فإن تأصيل علم الإعلام يقوم على تنـزيل عناصر العملية الإعلامية ومكوناتها ومحتواها على معايير مستنبطة من العلوم الإسلامية وفق مقاصد الشرع في كل عنصر إعلامي ووسيلة ورسالة إعلامية، وفي المتلقي وسلوكه وموقفه من الرسالة الإعلامية المرسلة إليه عبر الوسيلة الإعلامية.

ولنوضح أكثر نقول: إن التأصيل في علم الإعلام لابد أن يتناول المؤسسة الإعلامية باعتبارها مصدر الرسالة الإعلامية وصانعتها، فينظر الفقيه المؤصِّل في المؤسسة وفق أحكام الشرع في إنشائها وإيجادها أولًا؛ إن كان هذا الإيجاد ضرورة أم حاجة، وما هو قدر مستوى الضرورة وإلحاح الحاجة؟ وينظر المؤصِّل كذلك في مالكها إن كان عدلًا في نفسه ومهنته وفق شروط العدالة المعتبرة في قضية قيادة وتوجيه الرأي العام، كما ينظر الفقيه المؤصِّل في مصادر ثروة تمويل

قيام المؤسسة الإعلامية وتشغيلها إن كانت من مصادر الحلال أو أصوله، وكذلك لابد من النظر في التشريعات المنظمة لأعمال وأهداف مثل هذه المؤسسة ومواثيق شرفها إن كانت موافقة للشرع أم لا ؟ وينظر في علاقات الإنتاج داخل المؤسسة بين الإعلاميين والمالك للمؤسسة ونظم الإدارة إن كانت موافقة لعلاقة الأجرة والأجير والمستأجر في الفقه الإسلامي، كما ينظر في أساليب العمل والتقاليد الإدارية غير المكتوبة حين الممارسة إن كانت موافقة للحق أم لا ؟

ثم ينتقل الفقيه من بعد المؤسسة إلى العاملين فيها وهم الإعلاميون الذين يصطلح على تسميتهم باصطلاح (القائم بالاتصال) فينظر في سمعتهم وأخلاقهم وعلمهم وهيئتهم، وما إذا كانوا قدوة يصلحون لتوجيه الرأي العام وتعليمه وتثقيفه أم لا، وكيف يتم اختيارهم، وهل يوجد من هم أفضل منهم لقيادة التوجيه للرأي العام أم هم الأفضل؟ ويتحرى في أحوالهم تقديم المفضول شروط الفنون المهنية وإتقانها عند عدم إتقان الأفضل مع كونه أولى بالوظيفة الإعلامية في المؤسسة أو الوسيلة أو القناة أو الصحيفة، وهل من مواثيق وأساليب الممارسة الإعلامية لدى الإعلاميين ما يناقض الشرع في إنتاج الرسالة الإعلامية وكيف نجعلهم يتجنبون ذلك؟ وتحديد مجالات الاتصال الإعلامي بأن يكون القائم بالاتصال

الإعلامي عالمًا بموضوعه مدركًا لمخاطر عرضه على الرأي العام وعارفًا بفوائد ذلك ومضاره، وحاذقًا في التعامل مع الكافة والعامة حتى لا يتسبب في تحريف أفكارهم أو تلويث رؤاهم الصحيحة للأمور.

ثم ينظر الفقيه المؤصِّل في الرسالة الإعلامية إن كانت في محتواها المقدم لجمهور القراء أو المشاهدين أو المستمعين أو النظارة أو غيرهم صالحة موافقة لمقاصد الشارع الحكيم في الإعلام والتعليم والتثقيف والإرشاد والتربية والتوجيه أم لا ؟ وما هي حدود الجد والهزل فيها ؟ وما هي الحدود الفاصلة بين الترويح واللهو المضل عن سبيل الـلـه؟ وما هي أحكام الفنون القولية التطبيقية والفنون الجميلة المستخدمة في وسائل الإعلام وفق رؤية الشرع لها؟

ومن ثم ينتقل الفقيه المؤصِّل إلى المتلقي، وهو جمهور المتعرضين لوسائل الإعلام من قراء ومستمعين ومشاهدين وغيرهم؛ فيضع معايير صحيحة وفق أحكام الشرع للتعرض لوسائل الإعلام، ويبيّن الحاجة إلى الاستماع والمشاهدة والقراءة ومن بين الموضوعات أيها يقرأ، ومن بين البرامج ماذا يشاهد، ومن بين المذاع الكثير ماذا يسمع وكيف يستمع ومتى يستمع ؟. وذلك وفق أحكامه في الرسالة الإعلامية بعد تقويمها وبيان مقاصدها الخيِّرة، وجوانبها الضارة

المسيئة وحكم الاستماع والمشاهدة والقراءة والنظر لما هو محرم في العادة حينما يأتي عبر وسائل الإعلام. ومتى ينصرف الجمهور وجوبًا عن وسيلة إعلامية ويقاطعها؟ وما حكم الوسيلة المتخصصة في اللهو أو الفجور والوسيلة التي جمعت عملًا صالحًا وآخر سيئًا والوسيلة الهادفة إلى تقديم الخدمة النافعة والوسيلة الغريبة على الدين والأخلاق؟

كما يبين الفقيه المؤصِّل حكم الانصراف عن الوسائل الصالحة من قنوات وصحف وإذاعات إلى الوسائل السيئة ومجالسة سوئها وفحشها وبذاءتها ومنكرها فيصدر أحكامه في كل ذلك.

وقد ينظر المؤصِّل الفقيه في قيام المؤسسة بإيجاد هيئة شرعية لتقويم البرامج والمسموعات والمرئيات والمواد قبل عرضها على الجمهور، وصياغة ميثاق شرعي لممارسة المهنة الإعلامية ومراجعة قوانين الإعلام والصحافة بكافة الجوانب فيها.

وقد ينظر في تقويم الجمهور لوسائل الإعلام بنقدها وما دور النقد الفني في الصحف والمجلات في الإصلاح الشرعي لهذه الوسائل. وقد ينظر أيضًا في مقاطعة وسائل الإعلام الفاسدة لإلحاق الضرر بتمويلها من إعلانات ترد إليها تستهدف الترويج للسلع أو الخدمات أو غيرها، فإذا انصرف الجمهور عنها انصرافًا هائلًا فإن

ذلك يؤدي إلى انصراف المعلنين والشركات عنها لأنهم لا يرغبون إلا في نشر واسع لإعلاناتهم وترويجها عبر وسائل لها جمهور عريض، فتمارس الجماهير دور الحسبة والرقابة الشرعية بالتأديب الاقتصادي لوسائل الإعلام بالمقاطعة.

كما أنه على الفقيه المؤصِّل أن يحدد دور الدولة الإسلامية في إنشاء وتأسيس وسائل الإعلام لخدمة الدين والأخلاق والتربية ولخدمة العلوم النافعة والثقافة التي تحسن الآداب والأخلاق وترعى الأجيال على سبيل الواجب عليها.

كما ينظر في حال انتشار وسائل الإعلام الفاسدة في الواجب العيني والكفائي الواقع على رجال المال والأعمال المسلمين في إقامة وسائل إعلامية تقوم على ثغرة الإصلاح والتجديد لمعاني وروح التدين في المجتمع.

ولن يغفل المؤصِّل الفقيه موارد تشغيل وسائل الإعلام، وخاصة التي تمولها الدول المعادية للمسلمين سرًّا أو علانية، أو تلك التي تكون وكيلة عن وسائل إعلامهم المعادية للإسلام والمسلمين وتنشأ في أرض الإسلام.

كما ينظر في حكم أموال الإعلانات ونوع الإعلان وبيع الزمن للإعلان وطرق تصميمه، وحكم المسابقات والتي فيها نوع من

المقامرة أو المنافسة غير الموافقة للشرع لتكون أسلوبًا لتمويل البرامج واجتذاب المشاهدين والمستمعين وما في حكم ذلك من أساليب إنتاج البرامج والحيل المستخدمة في تمويل الإنتاج الإعلامي، وشراء ذمم المشاهدين بجوائز تخضعهم لأهواء المعلن أو صاحب المؤسسة الإعلامية.

إن المؤصِّل الفقيه عليه أن يعطي التشريعات الإعلامية أهمية خاصة وكذلك مواثيق العمل الإعلامي، فيعمد إلى النظر في نصوص القوانين والمواثيق وينقح هذه النصوص من كل ما يتعارض مع الشرع ثم يعرض مقاصد النظام الإعلامي كله على مقاصد الشريعة؛ فإن وافقتها تم له ما أراد، وإلا فليعمل على تنقية النظام الإعلامي من كل ما يتعارض مع نظام الإسلام في واجبات وحقوق الإعلام والاستعلام والاتصال، بحيث يكون النظام الإعلامي في المجتمع فرعًا من الشرع والأصول الفكرية الإسلامية لهذا المجتمع الذي يحتكم في كل شئونه إلى تلك الأصول بما فيها نظام الإعلام الذي يتبناه، وتعمل القوانين والمواثيق واللوائح الحاكمة للنشاط الإعلامي في إطار ذلك النظام المستمد من تلك الأصول الإسلامية.

وقـد قـام رواد علـم الإعـلام مـن المسـلمين بمحـاولات مفيـدة في تـأطير نظـام إعلامـي يحكمـه إطـار عـام مـن القـيم الإسـلامية والمقاصـد

الشرعية والالتزام بالحق والحقيقة في الأداء الإعلامي، ولكن المعضلة تمثلت في كيفية إنزال هذه القيم الإعلامية والمقاصد في واقع التطبيق العملي تنظم في لوائح إدارية وتقاليد مهنية وأعراف فنية وتقنية لممارسة مجموعة المهن الإعلامية المتعددة، إذ لابد من التفصيل في هذه الأصول والمقاصد والقيم بحيث تكون لكل مهنة إعلامية قواعد شرعية مهنية، كأن يكون لفني الإخراج قواعد مهنية ولا أقول (ضوابط)؛ لأن الضبط يحرض دائمًا بالانفلات متى ما أمن المضبوط استرخاء قبضة الضابط، فالقاعدة المهنية الشرعية يمكن أن تصاغ في لائحة إدارية عادية أو في ميثاق شرف مهني يلتزم به أبناء كل مهنة سواء كان مخرجًا أو مذيعًا أو مصممًا أو مشرفًا أو فنيًا أو كاتب نصوص، ولابد من النظر في تأصيل الفنون بكافة أنواعها وبإيجاد جذور لكل القيم الجمالية والفنية والأدبية المستخدمة في الفنون الصحفية والإذاعية، وتكون هذه الجذور موافقة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

سابعًا: الإطار النظري لهذه الدراسة:

(أ) الرؤية الإسلامية للمعرفة الاتصالية عند الغربيين:

تعرف الموسوعة البريطانية الاتصال بأنّه عملية نفسية اجتماعية ضرورية للإنسان، والاتصال كعلم يعني دراسة تبادل المعاني بين أفراد في المجتمع، ويتم هذا التبادل من خلال نظام مشترك من الرموز [2].

(2) الموسوعة البريطانية، ط 5، ص 1005.

وهذه الرموز غالبًا ما تكون هي اللغة المشتركة باعتباره نظام التفاهم الأرقى بين البشر عامة، لذا؛ فإن كل الدراسات العلمية السلوكية ذات صلة على نحو ما بمفهوم الاتصال، وعليه فإن العلوم التي تدخل في كشف حقائق علم الاتصال علوم متعددة لا تقتصر فقط على علم النفس، أو علم الاجتماع، أو علوم اللغات والتربية فقط، وظهور الاتصال كعلم مستقل بنفسه عن سائر العلوم الاجتماعية أسهم في تحقيقه باحثون مختلفون ذوو تخصصات متباينة تبدأ من الفيزياء والطبيعة وتنتهي بآخر ما ينتهي إليه علوم المجتمع من تشعب وتفريع.

إذا دققنا النظر في بعض التعريفات والشروح التي أسهم بها علماء المجتمع وعلماء النفس في توضيح معنى الاتصال نلاحظ أن هؤلاء العلماء قد أوضحوا هذا المفهوم بتقديمه في صورة وصفية.

مثلًا يقول الباحث كارل هوفلاند: [إن الاتصال عملية يقوم بموجبها المرسل بإرسال رسالة بقصد تعديل، أو تغيير سلوك المستقبل]، وهذا تعريف استقرائي قصد منه توضيح غرض المرسل من إطلاق رسالته على أن الجزء الأول منه وصفي
لا يخلو من القصور.

ويقول برلسون وستاينر (1964م): [الاتصال هو نقل المعلومات والأفكار والمهارات بواسطة استعمال الرموز سواء كانت كلمات، أو صور، أو أشكال، أو رسومات]. وهذا التعريف أيضًا اهتم بشرح

الرسالة الاتصالية وبيان أنواعها ومحتواها.

أما تعريف ولبر شرام (1977م): [الاتصال هو المشاركة في المعرفة عن طريق استعمال مجموعة من الرموز المحمَّلة بالمعلومات]، فهو أقرب إلى تعريف الاتصال الثقافي والتعليمي، غير أنه جيّد في إبرازه لحالة المشاركة بين طرفي العملية الاتصالية، وكأنما يومئ إلى نوع من التواضع على فكرة محددة بين الطرفين والموافقة عليها بعد أن طرحها المرسل بمبادرة منه.

وإذا كان الذين أسهموا في أبحاث الاتصال إما من علماء الفيزياء أو اللغة، علم النفس، علم الاجتماع، أو الهندسة، أو علم السياسة، أو علم الاتصال نفسه، فإنه حريٌّ بعالم العقيدة أن يسهم في هذا الجهد لإثراء المعرفة العامة بالمعرفة الدينية وتفقيه هؤلاء بما لديه من جديد الفهم في ميدان الاتصال عامة؛ لأن المعرفة التجريبية قد أسهمت بدورها في توضيح خصائص المادة الاتصالية في الجماد والمخلوقات، والعلوم الإنسانية شاركت في إبانة آثار الاتصال في الإنسان ودوره فيه، فما على الفقهاء إلا أن يقدّموا إسهامهم العلمي في الكشف عن جوانب اتصالية أخرى ليست بشرية، فإن وسائل بحثها تقع في نطاق الدراسات الإسلامية حيث لا توجد في الأبحاث التجريبية والتطبيقية.

على أنه من المؤسف أن نتخذ من تعريفات علماء الدراسات الإنسانية قواعد معيارية لقياس صحة ما سنقدمه في هذه الدراسة من (معالم فقه الاتصال المقارن)؛ لأنها قد سبقت الفقه الإسلامي إلى ميدان أبحاث الاتصال، ولكنها مع ذلك لم تسبقه في المعرفة الاتصالية لأن الديانات سابقة ورائدة في الأصل لهذه العلوم، إذ لولا الصراع بين الكنسية والعلم في القرون الوسطى في أوربا لربما كنا نجد اليوم من علماء الإلهيات الأوربيين من أسهم في إثراء المعرفة الاتصالية بمفاهيم عقدية. وقد شارك علماء المسلمين الأوائل في ثنايا دراساتهم عن المخلوقات والمجتمع بشيء يسير في حقول تقترب من علم الاتصال مثل الإسهامات المهمة في الخطابة والشعر والنثر والمنتديات والمناظرة والرسائل الديوانية والإخوانية والفلسفية وغيرها من الأنشطة التي أسهمت في تطوير معالم الاتصال الثقافي في عصرهم بما يتناسب وذلك الزمان.

ولولا توفر الأبحاث في ميدان الاتصال الإيماني لما استطعنا أن نجرؤ على إقحام محاولات وضع معالم نظرية الاتصال في الإسلام، واستقراء بعض النماذج المتفرعة عن هذه النظرية الأصل.

إن فلسفة الاتصال الإيماني تقوم على أساس أن العملية الاتصالية لا يقوم بها الإنسان فقط وأنها لا تحتاج بالضرورة إلى وسيط من بني

الإنسان في كل الأحوال أو أنها تتم عبر وسيط مادي فحسب، إذ يمكننا أن نقول: إنه اتصال يجري على نحو مختلف إما بوسائل عادية، أو قد تكون خارقة للعادة؛ ونعني بخرق العادة أن الإجراء الاتصالي يتم في جو مغاير ووسط مختلف عن ذلك الاتصال العادي، مباشرًا كان أو غير مباشر، ذاتيًّا كان، أو شفاهيًّا، شخصيًّا كان أم جماهيريًّا.

وإذا أردنا أن نوضح أكثر نقول: إن الاتصال الإيماني إجراء غيبي يتم خلاله نقل المعلومات والأفكار برموز وصور، وقد يكون عبر وسيط أو بدونه، دون الاستعانة بالوسائل المعتادة والمألوفة في الاتصال البشري الذي يجري بين الناس، وهو بذلك اتصال خصوصي يمتاز به صاحبه عن غيره في علاقته بالمصدر المرسل، أو الوسيلة الناقلة، وفي قدرته على تلقي الرسالة، أو تمثلها. وقد يتم الاتصال الإيماني على مرحلتين بأن تتبع مرحلة الاتصال الخصوصي، اتصال عمومي يكون فيه المتلقي الخاص مرسلًا عامًّا، وهذا ما يقوم به الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات الـلـه وسلامه.

على أن النفس المؤمنة في اتصالها بخالقها لها حالات من التلقي الخاص مثل الرؤيا الصادقة والإلهام وهي عملية ذات خصوصية في حالة التلقي وحال إلقاء الرسالة من المصدر دون وسيط.

والرسالة الإسلامية في مجملها (كتابًا وحكمة) أمر رسول الـلـه ﷺ

بنشرها، وذلك بتعليم القرآن وتبليغ الحديث، وأكَّد على دور المرسل الوسيط في الاتصال التعليمي الذي أمر به حين قال ﷺ: « **بَلِّغُوا عَنّي ولو آيةً، وحَدِّثُوا عن بني إسرائِيلَ ولا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوّأْ مِقْعَدَهُ مِنَ النّارِ**»[3].

وقد بذلت جهود حثيثة في الاتصال لتعليم القرآن والسُنَّة اهتمت بإعداد الرسالة قبل بثها إلى الناس تمثَّلت في جمع القرآن الكريم؛ فهو أول كتاب عربي جمع ودوِّن ورُتِّب، وعلى هدي نشر القرآن تطوَّر الاتصال التعليمي بعد ذلك حيث كان في القرن الأول محدودًا، وتحقق الانتشار بعد تطور صناعة الورق وانتشرت حلقات الدرس والإملاء ومجالسه إلى حدود سنة 751م، وبلغ ذروته في العصر العباسي حتى أسست مكتبة بغداد، وتطوَّر الاتصال بالكتابة بعد زيادة حركة الترجمة من السريانية والفارسية واليونانية والهندوسية، وهذا النوع من الاتصال العمومي حدث في الحضارات الأخرى غير الحضارة الإسلامية، ولكنَّ العصر الإسلامي أسهم أيضًا في تطور أنماط الاتصال التربوي والتعليمي في مجالس العلم والذِكْر وحلقات الدرس بما لم تطوره المدنيات الأخرى، وهذا أيضًا حقل خصيب للدراسات الاتصالية يمكن أن يرتاده الباحثون في الاتصال التربوي والثقافي والتعليمي والسيرة والتاريخ.

(3) صحيح البخاري، ج7، ص172، حديث رقم (3386).

(ب) طبيعةُ المعرفةِ القرآنيَّة:

إنَّ القرآن الكريم فيه سبعمائة وخمسون آية تتعلَّق بالعلوم الكونية صراحة، ورغم ذلك فإن البحث المعرفي لدى علماء المسلمين كان في العلوم التطبيقية أقل من البحث في علوم الفقه ؛ بينما لا تزيد آيات الفقه على مائة وخمسين آية صريحة [4].

فالعلوم الكونية ذات علاقة بالعقيدة الإسلامية، بمعنى أن النظر فيها طريق إلى المعرفة بالله تعالى وسُننه في الكائنات، وكلما ازداد الإنسان علمًا بمكونات الكون وروابطه وحركته وعلاقاته وصلاته ببعضه البعض، ازداد معرفة بالأسرار الغيبية الدالة على الخالق مكوِّن الأكوان. ومن هذا الطريق أيضًا يحصل التقدّم العلمي والرقي الحضاري والازدهار المادي، والذي يمكن اعتباره وسيلة فعَّالة في تثبيت دعائم الإيمان ونشر الإسلام، لذا فالقرآن الكريم حوى من علوم الدنيا والآخرة ما يحقق سعادة المسلمين في الدارين، صراحة وتلميحًا.

ونبَّه القرآن باستمرار إلى أن الكون مليء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا،

(4) **انظر:** الجواهر في تفسير القرآن الكريم، للشيخ طنطاوي جوهري،1340هـ ص25، 53، ط الحلبي.

لتفتح لنا الطريق إلى اللـه، ثم إلى حياة آمنة زاهرة مستقرة. نقل حجة الإسلام الإمام الغزالي (ت سنة 505هـ) في كتابه (إحياء علوم الدين) عن بعض العلماء: [أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لِكِلِّ كلمة ظهر، وبطن، وحد، ومطلع].

وانطلاقًا من هذا المفهوم: فقد أخذنا كلمات من القرآن لها معانٍ عملية في علوم الاتصال والإعلام. حيث وردت كلمات مثل: (وصَّلنا)، و(أنباء)، و(نبأ)، و(بلاغ)، ومثل (فتبيَّنوا)، أو (فتثبَّتوا) في قراءة، وخبر وأخبار كمشتقات وألفاظ، وما في إطار هذه الألفاظ التي يستخدمها علم الإعلام وعلوم الاتصال.

ومن أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن كما روي عن ابن مسعود س.

يقول الإمام الغزالي: [وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال اللـه عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها].

ثـم يمضـي الغـزالي إلى القـول: [بـل كـل مـا أشـكل فهمـه عـلى النظُّـار؛ واختلـف فيـه الخلائـق في النظريـات والمعقـولات، في القـرآن إليـه رمـوز

ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها] [5].

فالقرآن الكريم إذًا ينبغي وضعه حكمًا وفيصلًا في الصراع المعرفي الذي نجد فيه أنفسنا اليوم؛ وذلك لاشتماله على مفاتيح العلوم كافة. فالبحث عن الجذر العلمي للاتصال والإعلام أمر في غاية اليُسر في التناول من بين هذه المعقولات والنظريات التي يقول عنها حجة الإسلام وفي غاية الأهمية والضرورة لكل باحث، إذ إنه لا معنى للإعلام بالشيء والإخبار عنه وقد جهلنا المعلَمْ به والمخبر به، إن الرسالة الإسلامية متمثلة في الكتاب والحكمة هي موضوع الاتصال الرباني بالبشر، فلا يمكن أن ينفصم فعل (التوصيل) عن الموصَّلْ (أي الكتاب) ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص] وذلك من أفعال الله تعالى، وهذا الفعل لا يعرفه إلَّا من عرف القول الموصَّل، وهو قول الله تعالى القرآن المرسل بالوحي الأمين: ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [الحاقة: 40، التكوير: 19]، إذًا لابد من معرفة القرآن حتى نعرف الاتصال وحقيقته.

ويقول الغزالي: [ووراء ما عددته علوم أخرى يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم ممن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر لنا

(5) إحياء علوم الدين، الغزالي، مج 3، ص135.

بالبصيرة الواضحة التي لا يُتَمارى فيها: أنَّ في الإمكان والقوة أصنافًا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندثرت الآن، وعلوم أخر ليست في قوة البشر إدراكها والإحاطة بها، ثم في هذه العلوم ما عددنا ما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة من القرآن ؛ فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله وهو بحر الأفعال. وقد ذكرنا: أنه بحر لا ساحل له، وأنَّ البحر لو كان مدادًا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿ الشمس والقمر بحسبان (5)﴾ [الرحمن].

ويقول: [لا يعرف حقيقة سير الشمس بحسبان وخسوفها وولوج الليل والنهار وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر إلَّا من عرف هيئات تركيب السماوات الأرض، وهو علم برأسه] أي: (علم قائم بذاته) !

ويقول الشيخ جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) في (الإتقان في علوم القرآن)، وفي (الإكليل في استنباط التنزيل) بما قاله الغزالي من علاقة العلوم التطبيقية بالقرآن الكريم، وضرورة التصديق بآيات القرآن وتجريب آيات الكون ودراستها وتدريسها، ويسوق السيوطي

الأدلة على ذلك حتى يقول: قال أبو الفضل المرسي: [جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلّا المتكلم به، ثم رسول الـلـه ﷺ- خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى - ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: [لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الـلـه تعالى] ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهِمم، وفَتَرت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابه والتابعون من علومه وسائر فنونه] [6].

وننقل عن عبد الرحمن الكواكبي قوله: [وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيميائي، بل والمعنوي ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار (8) ﴾ [الرعد].

إن العلم استنبط في القرون الأخيرة وكشف الستار عن حقائق وطبائع وأحوال تُعْزى لمكتشفيها، ولكننا لو دققنا في آيات الكتاب العزيز لوجدنا أكثرها قد وردت تصريحًا أو تلميحًا، وما علم الاتصال والإعلام إلا واحد من هذه العلوم وتلك المعارف.

(6) الإكليل، ص2. والإتقان ج2، ص126.

(ج) تعريف بالدراسة:

في السطور التالية وأنا إذ أقدم هذه المحاولة أشعر بمتعة روحية عظيمة، تلك هي متعة التعريف بـ (الاتصال الدائم بالله) وتوسيع آفاق الكون الذي ضيَّقه الإنسان، حتى تتصل بالله تعالى هي الأخرى، هذه الطاقة المعنوية لا تستطيع المناهج استخراجها لأنها هي التي أوجدتها. إن (علم الاتصال) لا يخرج ولا ينبغي له أن يخرج عن ناموس الإرادة العليا منفصلًا عنه، إنه علم اتصال المعلوم بالمحتاجين إليه، إنها طاقة الحياة في تفاعل الكون ومكوِّناته وجزئياته؛ لتتم عمارة الأرض واستخلاف الحق بالحقيقة لا بالكذب، والحقيقة هي كلمة البلاغ والإعلام المؤمن، وما سوى الإيمان باطل.

إن الكون كله حقيقة واحدة حسيَّة ومعنويَّة، فلا تستطيع مناهج البحث المعاصرة أن تجبرنا على أن نقول: إن ما ليس محسوسًا ليس بعلم، بل يجب أن لا ننصاع لذلك.

كما أنَّ الكون لا نُقَسِّمه إلى كونٍ مادي وكونٍ آخر معنوي، فلا يمكننا أن نقسِّم العلم، فكلُ العلم إنما هو علمٌ أو سرٌّ من الأسرار يكشفها اللـه للإنسان ﴿ وفوق كل ذي علم عليم (76) ﴾ [يوسف].

إن الكـون مجموعـة مـن الطاقـات المعنويَّـة والحسـيَّة تتحـرك عـلى الـدوام، وتتصـل باسـتمرار، فـإذا اختـل تـرابطُ وتـوازن المحسـوس بغـير

المحسوس، والمرئي والمدرك بالحواس بغير المدرك، اختلَّ نظامُ الكون وفسد وزال التكوين وتبدّد في الآفاق.

والإنسان القائم بالاتصال أو موضوعه أو متلقِّيه واحد من طاقات هذا الكون، وطاقات الكون في نشاط اتصالي دائم، وفي تواصل وإعلام توجهه إرادة الـلـه الواحد.

فالاتجاه بالعبادة لله اتصال إنساني نحو خالق الكون باعتبار العبد بضعة من الوجود الفسيح، فالكون بأجزائه لابد أن يكون في اتصال دائم لأنه طاقات متجاذبة، تحتاج إلى الترابط والحركة باستمرار، و الـلـه فاطر السماوات والأرض حق، والفضائل والقِيَم العليا حقٌّ، ولا ينفكُّ حقٌّ عن الحقِّ الأكبر الذي هو منْبعُهُ مصبُّه. والإنسان فطرةٌ منجذبة متجاوبة في اتصاله مع خالقه، ومع بني جنسه، متمشيًا مع الناموس العام، ناموس الفطرة، التي هي الإيمان الجِبِلِّي، لذا جعلنا الإيمان بؤرة الحقيقة العلمية (في نظرية الاتصال) موضوع هذه الدراسة ؛ وبنينا عليه المقدِّمات والنتائج.

فالمحسوسات كما هي مترابطة مع غير المحسوس داخل ذات الإنسان (فطرةً) للإيمان بما هو محسوس وما هو غير محسوس، أي: ما تدركه الحواس، وما لا تدركه، وهما طاقتان فطريتان في البشر، وكلتاهما طاقة إنسانية أصيلة مترابطة متداخلة في اتصال دائب مستمر.

إننا إذا لم ندخِلْ ما لا تدركه الحواسُ من (أنواع الاتصال ونظمه) في إطار العلم؛ فإننا نلغي بهذا مزية الإنسان العظمى التي تُفرِّق بينه وبين الحيوان، الذي لا يؤمن بشيء من الأشياء، وإننا في هذه الدراسة ببساطة لم نلغ القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس، وهي المزية الأساسية للوجود الإنساني والموهبة العظمى التي أعطاها الخالق للإنسان.

بل إننا نربأ بالعالم أن يتبنَّى منطقًا يقول: (إنَّ العالَمْ هو ما تدركه الحواس)، إنَّ من يقبل بمثل هذا المنطق لا نستطيع أن نسمّيه عالِمًا، فالعالَم والكونُ كلٌّ لا يتجزأ بحسيِّاته وغيبيَّاته، وذلك هو المنطق الذي يقبله العقل والعلم دون سواه، وهو ما قبلناه وعملنا به في هذه الدراسة.

لذا سوف تجد - أيها القارئ الكريم - أن هذه الدراسة تتكون من المداخيل النظرية لربط المعرفة الاتصالية بالعلم الإسلامي متمثلًا في علم العقيدة والدعوة، فمن علم العقيدة أخذنا قواعد العمل النظرية لمرتكزات الأساس في تأصيل علم الاتصال، بإثرائه بمعرفة التوحيد وما يتفرّع عنه من مباحث خاصة بهذا العلم لتكون الإطار النظري العام الذي نؤسس عليه نظرية المسلمين في الاتصال، وهي نظرية خبروها وقاموا بتطبيقها عمليًا في حيواتهم الخاصة والعامة، ومن

القرآن الكريم أخذنا الأدلة النقلية والمفاهيم المعرفية للاتصال الرباني، ومصطلحه العلمي في هذه الدراسة هو لفظ (الاتصال الغيبي)، أما علم الدعوة فأخذنا وسائله التعليمية المهمة مثل الخطابة والرحلات والهجرة، وتخيَّرنا فقط نماذج مثل الجمعة والحج لأن ما يهمنا هنا هو البرهان، إذ إننا بصدد وضع نماذج تكون جزءًا من بناء نظري متكامل، فاكتفينا بالأمثلة، وكان من الممكن أن تتوسع الدراسة، ولكن منهجنا الذي اخترناه هو الاقتضاب والإيجاز الملائم لإيضاح الفكرة النظرية (جذورها وفروعها).

وما أجملناه منهجيًّا تم تفصيله نظريًّا في ثلاث فصول كرَّسنا فصلين منها للاتصال الغيبي بالتركيز على ظاهرتي (الوحي والرؤيا)، واستقل الفصل الثالث بنفسه ليقدِّم تجذيرًا للاتصال المباشر من علم الدعوة في الاتصال الجمعي، ومن علم المصطلح والتفسير وعلم الاجتماع معًا في الاتصال الشخصي واتصال المجموعات الصغيرة.

* * *

الفصل الأول

فِقْهُ الاتِّصَالْ الغَيْبِيّ

والبَلاغِ النَّبوِيّ في العقيدة الإسلامية

معالم النَّظريَّة
والنَّماذجُ التَطْبِيقِيَّة (نَموذجُ الوَحْي)

إنَّ اللـه تعالى أرسل الرسل لحاجة فطرية لدى البشر إلى الأديان، والرسالات الإلهية إلى البشر حالة اتصالية تحقق ضرورة اجتماعية لدى الإنسان وتشبعها، ولا غنى عن الوحي الذي يأتي للأنبياء والرسل صلوات اللـه وسلامه عليهم.

فالاتصال الرباني بالناس اتصال عبر وسطائه وهم الرسل، وهذا الاتصال عبر وسيط لمقابلة الافتقار إلى المعلومات الضرورية، ولإشباع نفس الإنسان بالطمأنينة والسكينة بإخراجه من عزلة الكفر، ويحقق هذا الاتصال راحة أيضًا بإيجاد شعور الانتماء إلى جماعة متحدة الأفكار والشعور والمرامي بما يفضي لدى الفرد الواحد في هذه الجماعة بالاستقرار النفسي والتقوِّي الوجداني والعاطفي.

والاتصال الرباني بالناس عبر الرسل كذلك يحقق للأفراد في المجتمع المتلقي ذواتهم من خلال التأثر بالقدوة وتمثُّلِ سلوكه ونقله إلى الآخرين، ومن ثَمَّ الشعور بالنجاح والرضا عن الذات والآخر، فيندفع الآخرون لمشاركتنا في منافع عامة للجميع.

دعائمُ الاتِّصالِ الإيماني:

لكل نظرية دعائم فلسفية تقوم عليها وفق المذهبية التي تتولَّد عنها، وهذه تمثل مجموع الأفكار التي ترسم معالم القواعد الفكرية التي تنبت عليها معاني الفهم البنائي لهذه النظرية، ويقوم الاتصال الإيماني على:

1. الغيب والإيمان به، مصدرا للاتصال.

2. الوحي والإيمان به، وسيلة للاتصال.

3. التنـزيل والإيمان به، رسالة تم توصيلها.

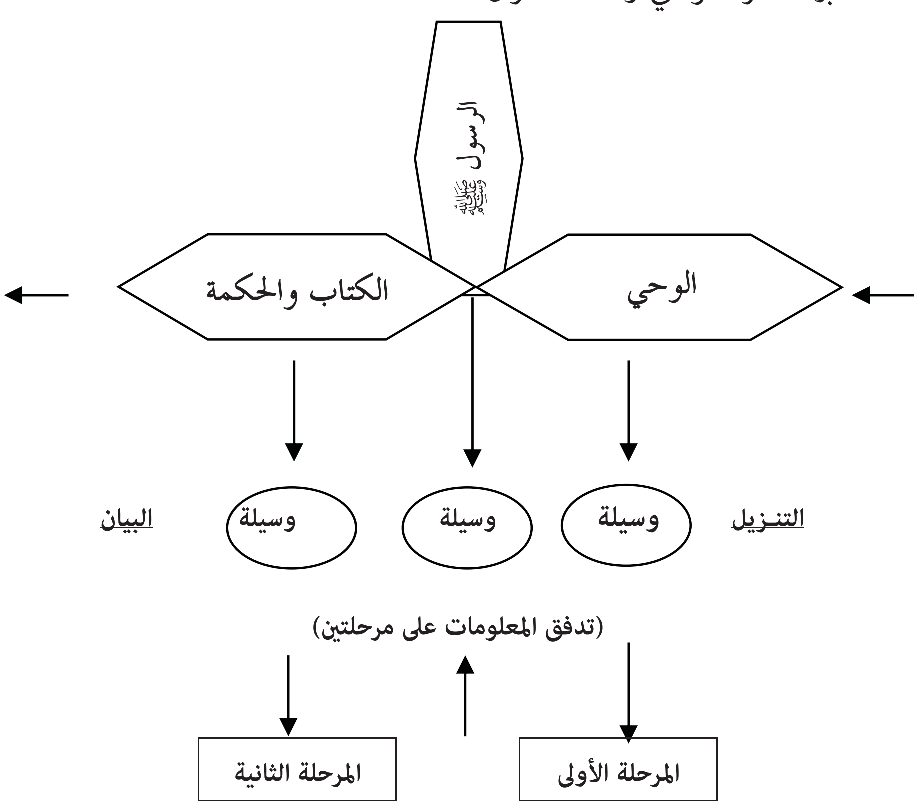
4. الرسول والإيمان به، قائمًا بالاتصال صادقًا في إبلاغه.

وهذه الدعائم تستند كلها على كلمة التوحيد (لا إله إلا الـلـه محمد رسول الـلـه) وتتفرع عنها، ولكن تفصيلها على هذا النحو يبيّن لنا أطراف الاتصال الإيماني في بُعده النظري باعتبار أن الـلـه عز وجل هو المرسل للرسل، وأن جبريل الملك هو الرسول الكريم والروح الأمين على الوحي ومبلغه إلى رسول الـلـه إلى الناس فيتلقاه عنه، ومن ثمَّ يبلغه إلى الناس، حيث يتم الاتصال بتدفق المعلومات على مرحلتين، في المرحلة الأولى إلى الرسول ﷺ، وفي المرحلة الثانية من الرسول ﷺ إلى الناس.

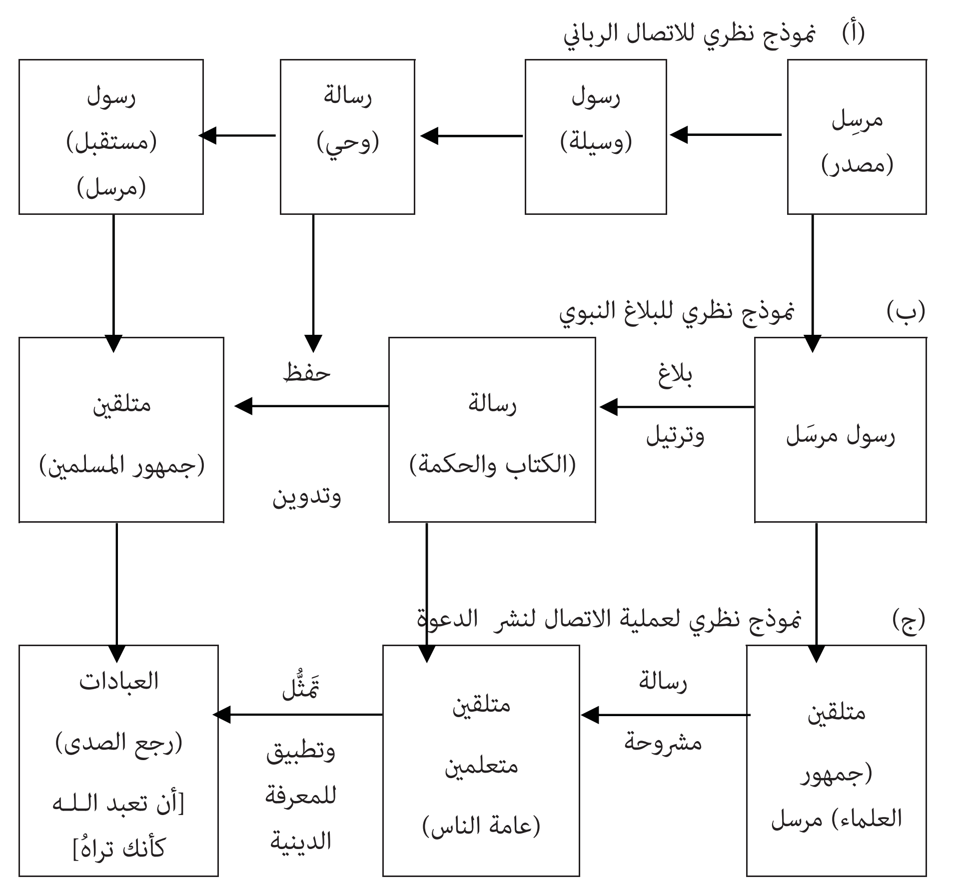
فالمرحلة الأولى مرحلة غيبيَّة، ويتم فيها اتصال خاص بالأنبياء. والمرحلة الثانية مرحلة مشهودة يتم فيها اتصال عام بالناس كافة.

ويمكن تصوّر النَّموذج النَّظري للاتصال الإيماني فيما يلي:

عبر ظاهرة الوحي وحفظ القرآن:



القاعدة النظرية في هذا النموذج: أن الوسيلة هي الرسالة، بمعنى أنها تلخّص كل العملية الاتصالية من حيث جريانها نظريًّا، فالرسالة هي (النقل) وهذا يتفق مع المصطلح الفقهي الذي يفيد الاتصال أيضًا.



في هذه النماذج الثلاث نجد ثلاث مراحل لتدفق المعلومات ولكنها مراحل غير متقطعة أفقيًّا وإنما تدفّق مُمَرحل، تكون لكل مرحلة وسط اتصالي مختلف عما سبق ثم تتكامل بحيث يتلقى المصدر الأول رجع الصدى، فمثلًا الصدى في العبادات والمعاملات.

أولا: خواص الاتصال الغيبي:

1. اتصال سريان المعرفة فيه على مراحل من المصدر إلى الجمهور المستهدف بالرسالة.

2. إجراء الاتصال عبر وسيط ذو كفاءة وقدرة على النقل عن وسط اتصالي إلى وسط آخر باعتباره وسيلة فذَّة ولا بديل لها ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) ﴾ [التكوير].

3. المصدر على معرفة تامة بلا نقصان عن المتلقين واعتبار حالهم وقدراتهم في الاتصال، (كونه تعالى عليمًا).

4. يتولى المصدر إجراء الاتصال وإنجاحه وضمان دوام التأثير في هذا الاتصال، ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)﴾ [القيامة].

5. التأثير المتوقع لدى الجمهور هو تغيير المعارف، ومن ثَمَّ الاستجابة لمحتوى الرسالة بالتطبيق ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى ﴾ [فصلت: 44].

6. استخدام اللغة والرموز الأخرى، ﴿ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: 28].

7. اعتبار المصدر للخبرات السابقة من الاتصال إطارًا مرجعيًّا لفهم الاتصال الأخير، ولذا أوجب الاعتراف بالعقائد السابقة وتقوم على آليتين مهمتين هما:

(أ) تصفية المعلومات الخاطئة من الخبرات السابقة بكشف التحريف الذي تم في الكتب المنـزلة للرسل السابقين.

(ب) تمرير المعلومات الصحيحة من جديد مقارنًا لتقوية المخزون المعرفي لدى المتلقين، ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6].

8. التماثل المطلوب في النشاط الاتصالي بأن جعل اللـه تعالى القرآن بلغة العرب وهو القوم المخاطبين أصالة ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)﴾ [النحل].

9. الإيمان بالغيب سهَّل تلقي الرسالة الاتصالية ويُقيم اتصالًا معرفيًّا إدراكيًّا في نفس المتلقي نحو المصدر.

10. محتوى الرسالة ذو نفاذ مستقبلي للبشرية لعلم اللـه السابق بحاجة الناس للدين الخاتم.

11. شمول وعموم المحتوى الرسالي يضفي على الرسالة التميّز والرقي.

12. تميّز المحتوى ورقي الرسالة يعكس ارتقاء قدرات المتلقين المتأثرين بها، وهذه صورة غير مباشرة تثبت علميًّا انحطاط الكفر فكريًّا ومعرفيًّا، وهذا ما أكَّدته الرسالة باستمرار في القرآن.

والقرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا وعن طريق جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ، وعن طريق الرسول ﷺ إلى الناس. وقد جمع القرآن في المصحف وقام كتَّاب الوحي بتدوينه وسيلة لهداية الناس عبر القرآن، وهو كتاب بين ظهرانينا يتسم وجوده بالثبات والدوام بحفظ الله تعالى له كأعظم وسيلة إعلامية غيَّرت مسيرة البشرية.

وقد لخَّص القرآن نفسه الاتصال الرباني بالرسل وبالرسول عليه الصلاة والسلام في بعديه (التنزيل والكتاب)، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾ [الشعراء].

وهذه الآية هي التي تلخِّص العملية الاتصالية بمراحلها التي عرضنا لها وحاولنا شرحها علميًّا على المستوى النظري بنماذج توضيحية. فالنزول بالقرآن من الله تَمَّ بواسطة الروح الأمين (أي المَلَك جبريل عليه السلام) الذي وصفه الله تعالى بأنه: ﴿ ذي قوة﴾

[التكوير:20] في القرآن إذ إن الرسالة إلهية وليست بشرية تحتاج لمثل هذه الوسيلة الخاصة ذات القدرات العالية على تحمّل مشاق الاتصال الإلهي، والهدف من العملية الاتصالية هو (قلبه) عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم يُعرِّف العملية التي تجري بين الـلـه وعباده من نقلٍ للمعلومات بالوحي إلى رسله وأنبيائه بأنه إجراء اتصالي، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾ [القصص] [7]. ومعنى الإخبار الذي أورده قتادة يفيد معنى (الإعلام والاتصال) لنقل معرفة محددة تضمنتها الرسالة إلى المتلقين.

والإعلام الرباني يهتم بتنقية الأجواء الاتصالية من التشويش الذي يؤدي إلى الضلال، وليس ذلك فقط بتعديل الخبرات السابقة وتصفية الأخطاء المدخلة على المعلومات القديمة، والمتمثلة في تصحيح العقيدة من التثليث والشرك بغير الـلـه وتصويب الأخبار الواردة في الكتب السماوية السابقة، وذلك بتهيئة المتلقي نفسه ليكون قادرًا على التلقي في حالة نفسانية طيبة مهيئة ومعدّة سلفًا للقبول والرضا بمحتوى الرسالة القادمة عبر الإعلام الرباني، ويوضّح القرآن الكريم في مواضع كثيرة عملية التهيئة التي تتم للمتلقي لاستقبال

(7) محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، مج3، ص16-17.

الرسالة بإرادة المصدر المرسل لها، يقول الـلـه تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ الـلـهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الـلـهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) ﴾ [الزمر].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) ﴾ [الشورى].

ثانيًا: أنواع الاتصال الغيبي وطبيعته:

للاتصال الغيبي أنواع متعددة بحسب حالات التلقّي والاتصال ووسيلته والرسالة، ويمكننا أن نجمل هذه الحالات في أنواع متميّزة عن بعضها البعض:

1. إلقاء الـلـه تعالى المعنى في قلب النبي ﷺ (مباشرة) ويكون ذلك في اليقظة، أو المنام.

2. إلقاء الـلـه تعالى المعنى في قلب النبي ﷺ بغير واسطة الملك، ويصاحب الإلقاء في هذه الحالة خلق علم ضروري عند النبي ﷺ أن هذا المعنى قد قذفه الـلـه قطعًا ولا يحتمل الشك، أو التأويل.

3. بالرؤيا الصادقة كما في قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل.

4. من وراء حجاب كما كلَّم موسى تكليمًا من غير واسطة.

5. إرسال مَلَك الوحي مع حصول علم ضروري بأنه مَلَك

الوحي يبلغه عن الـلـه تعالى.

ولأن المعاني المرسلة من مصدر الوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إنما تأخذ خصوصية بأن يعطي الـلـه علمًا إدراكيًّا لماهية هذه الرسالة وما هو المعنى المقصود والحقيقي لمضمون معلوماتها، أو أن الذي يبلغ هذا قطعًا قادم إليه من المصدر الإلهي، وهو ما سمَّاه علماء العقائد (بالعلم الضروري المخلوق في قلب النبي أثناء الوحي)، ودليله عندهم قول الـلـه تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الـلـهُ ﴾ [النساء: 105].

فما أراه الـلـه سبحانه وتعالى لنبيه بشأن الرسالة موضوع الاتصال الرباني هو المفتاح الحقيقي لفك رموز وشرح طلاسم المعلومات الحقيقية المقصودة بها وليست ظاهر معاني الكلمات أو غيرها فحسب. وفي هذا يقول عمر بن الخطاب: [لا يقولَنَّ أحدٌ قضيتُ بما أراني الـلـه تعالى، فإنَّ الـلـه تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه].

ولذلك فإن طبيعة الاتصال الرباني هي: إجراء غيبي لا يدركه إلَّا الأنبياء على حقيقته دون سائر الناس العاديين كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) ﴾ [الحاقة].

وما لا يبصره العاديون من الناس يبصره الرسل أثناء الاتصال الرباني ويدركونه بإرادة اللـه ؛ ولا يتكلفون ما يقولون للناس كما يفعل الشعراء، ولا يستوحونه من مصادر مجهولة كما يفعل الكهَّان ؛ وإنما ذلك تنـزيل من رب العالمين.

هذه هي طبيعة الاتصال الرباني، وهو اختصاصيٌ للرسل دون غيرهم اختيارًا لهم واجتباء وتفضيلًا عن بقية الناس، ولذلك لا يمكن القول بأن الوحي اتصال عمومي يمكن أن يحصل لغير الأنبياء والرسل، وهذا يجعله طرازًا فريدًا في الاتصال بخصوصية المصدر وخصوصية الوسيلة الناقلة وخصوصية محتوى الرسالة التي هي موضوع الاتصال وخصوصية المتلقي وهو نبي مرسل مهيأ لهذه المهمة تهيئة خاصة وممتازة دون الخلائق، ولهذه الطبيعة الخاصة للاتصال لابد من الإيمان بالغيب والوحي والتنـزيل والرسول.

ثالثًا: المصدر في الاتصال الغيبي:

لأن اللـه جلّ وعلا هو المصدر للرسالة الإلهية لأنبيائه ورسله ولمن يشاء من عباده، فإن مصدرية الرسالة أصيلة، وليس كما في الاتصال البشري العادي، الذي هو نقل من مصدر آخر دائمًا، مثل مصادر الأخبار والأحداث ومواقعها وأشخاصها الذين هم صنَّاع الأحداث، وما قد يعتري الاتصال، فالرسائل التي تصدر عن الناس فهي عن

علم مكتسب منقول بطبيعته عن آخرين، ولله المثل الأعلى، فصفة العلم والحكمة فيه كما جاء في الحديث: « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ** »[8].

فالمصدرية أصيلة في هذا النوع من الاتصال في المرسل وهو (العليم الحكيم) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)﴾ [الحديد]، ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) ﴾ [الأنعام]، ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)﴾ [الطلاق].

لذلك فإن حدث الاتصال نفسه سابق في علم الله تعالى، يعلم جلَّ وعلا متى وكيف ومع من ولماذا وأين سيُجرى ومن سيتلقّاه عن رسوله بإذنه.

ثم إنَّ المصدر محيط بعلمه وسمعه وبصره كلَّ مراحل جريان

(8) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقال عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (61).

الاتصال إحاطة شمول للسوابق والحال واللّواحق ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58) ﴾ [النساء].

والوحي والعلم الرباني بسائر أنواعه لطف إلهي للبشر كما أنه إرادة كونية بقدرته، ومشيئة ربانية بكل ما شاء فعله - والوحي والعلم- منه، ودليله في علم العقيدة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾ [يس].

والمصدر في الاتصال الغيبي ليتلقّى (رجع الصدى) دومًا سميعًا بصيرًا بعبادة عباده بالطاعات التي أمر بها الوحي، عالمًا بأحوالهم فردًا فردًا، وليس هذا فحسب فإن (رجع الصدى) مع علم اللـه تعالى به تفصيلًا فهو مكتوب موثّق في كتاب العبد بالملكين، وهذا يعطي رجع الصدى صفة الثبات والقابلية للاطلاع، وهذا ما يجري يوم القيامة [9] ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) ﴾ [طه].

رابعًا: أساليب الاتصال بالوحي (خصائص الوسيلة):

يأخذ الوحي أساليب مختلفة بإرادة اللـه تعالى كما يلي:

(9) راجع نموذجنا السابق والتعليق الشارح له.

1. ظهور جبريل في حالته المَلَكية الحقيقية كما حدث في غار حراء، وليلة الإسراء والمعراج عند جنَّة المأوى.

2. إتيان صوت قوي يشبه صلصلة الجرس يقرع سمع الرسول ﷺ قرعًا ويحيط به من كل جانب، ثم ينفصم الصوت عنه وقد وعى ما قاله.

3. ظهور المَلَك في صورة رجل عادي يراه الصحابة ولا يعرفونه، ويتحدث حديث الرجل العادي معه ويسمع كلامه من حضر ويفهمه.

4. أن ينفث في روع الرسول ﷺ -أي: في عقله وفؤاده- بمعنى خاص يدركه ويعرفه دون أن يسمع أو يرى.

ومن صفات الاتصال بالوحي ومميزاته ما يلي:

* أنه اتصال مفاجئ يطرأ على الرسول ﷺ من غير تشوّف إليه أو تطلّع له.

* أنه اتصال إلزاميٌّ، ومظهر ذلك:

* تغيّر الحالة العادية للرسول ﷺ، كاحمرار الوجه وتصبب العرق، وثقل الجسم، وأن تبرك الدابّة إن كان على ظهرها أثناء الاتصال.

* تغيّر حالته النفسية من الهدوء إلى الخوف الشديد، ولاسيما أثناء التلقي الأول.

* أنه اتصال مستقل عن ذات الرسول ﷺ، بمعنى أنه لا يستطيع إجراءه بنفسه، فالوحي كان أحيانًا يغيب ويستبطئ عنه.

* أنه اتصال اختصاصي؛ اصطفى اللـه تعالى له الرسل برحمة يمنحها من يشاء ويمنعها عمَّن يشاء.

ونتيجة اتصال الرسل بالناس العاديين (عوامهم) هو الذي يفيد تلقّيهم للرسالة الإلهية وتمثُّلها وتطبيقها، ومن ثَمَّ يؤكد الاتصال الروحي بمصدرها وهو اللـه عزَّ وجلَّ وعلا.

فالقرآن هو الذي جعل وجهة المسلم (المستقبل) لمضامين الوحي وجهةً نحو اللـه (جعل اللـه العبادات علامة الاتصال الدائم بالمصدر الأكبر، وجعل ممارستها في أوقات معيَّنة مرتبطة ببناء الإرادة وتأهيل النفس الإنسانية لقطع استمرار أي عمل دنيوي في سبيل الغاية الربانية...) [10].

خامسًا: خصائص الرسالة في الاتصال الرباني:

الرسالة التي يحملها الوحي عبر الرسول إلى الناس لها صفات وخصائص عامة ذات قيمة مهمة وهي:

---

(10) عالمية الإسلام، أنور الجندي، 1977م، ص86-87، دار المعارف، القاهرة.

1. **خاصية الخلود:** باستمرار بقائه وامتداده في الزمان والمكان ما دامت البشرية، لأن الإنسان لم يستغن أبدًا طوال تاريخه عن الدين.

2. **خاصية الشمول:** الرسالة الإلهية عالجت قضايا العقيدة والعبادات والأخلاق والقوانين والاقتصاد والحرب والسلم وعلاقات الإنتاج والنشاط الفردي والعادات المدنية كاللباس والطعام والزيارات والأعياد.

3. **خاصية اليسر والسهولة:** رسالة من مصدر متصف باللطف والعدل والرحمة والحكمة فجاءت التكاليف ممكنة ميسورة والمعارف واضحة المعاني مفهومة مراعية لطاقة الإنسان وقابليته الذاتية، يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللـهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28) ﴾ [النساء].

4. **خاصية الإنسانية:** لتوطيد أواصر المحبة والأخوة ونبذ الطبقية والعنصرية والحزبية والقوة والنشاط والتمايز بالمال، أو النسب، أو الجاه والمكانة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ [الحجرات].

ومن هذه الخصائص في (الرسالة) يمكننا أن نجمل إجمالًا أهداف الاتصال الرباني بأنه يقصد إلى:

1. توثيق الصلة والعلاقة بين الإنسان وربه.

2. الحفاظ على نظام طيِّب نافع نظيف وعادل للعلاقات بين المخلوقات نظامًا للحياة البشرية.

3. تنمية الوعي بالعلم بالله تعالى، والارتباط الكوني بالخالق عزَّ وجلَّ.

4. إعمار الأرض وبناء الحضارات بالحق.

سادسًا: التشويش على الرسالة:

قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأمر بنشرها بين الناس وتعليمهم، وهناك معوِّقات في طريق البلاغ يمكن تلخيصها في:

(أ) تباين القدرة على الإدراك والفهم لدى المتلقين من حيث المستوى العقلي والاستعداد الفطري، ومن ثَمَّ ضعف الاستجابة، أو قوتها، وذلك وفق مقدار (الجهل).

(ب) عدم الانتباه للمؤثر الرسالي بالانصراف النفساني عنه، وهي خاصية (الغفلة)، وهي مفهوم يؤدي للتعرض الانتقائي للرسالة (Selective exposure).

(ج) الصراع السيكولوجي داخل النفس البشرية التي ألهمت الفجور والتقوى في آنٍ واحدٍ معًا. وهو ما نُسمِّيه بـ (صراع المنبهات)

مثل الدنيا وحبها والشيطان وإغوائه والنفس الآمرة بالسوء وأهوائها.

(د) الضغوط الخارجية على المدعو والداعية في تبليغ الرسالة والعوائق التي توضع أمامه، وهو ما نسميه بـ (التشويش المعادي) الذي يؤدي إلى حالة التأثير المحدود.

(هـ) الافتراض المسبق: وهو نوع من الإطار المرجعي (Frame of reference) يمثل خبرات سابقة قد تكون مورثة أو مكتسبة، مثل الجمود في عقائد الآباء الأولين وهو نوع من التمسك بالخبرات القديمة التي صارت (نمطًا جامدًا) وقناعة صلبة (Stereo types).

(و) العرض المختل للرسالة من الدعاة قد يؤدي إلى التشويش أيضًا، وهذا إما يعود لقدرات الداعية أو لعدم تمثله لما يدعو إليه، أو تحريف الكتب السماوية.

(ز) إغلاق قنوات الاتصال: مثل نماذج محاربة الدين بالقهر من السلطة، أو القوى العالمية ذات النفوذ بحيث يمنع وصول معلومات كاملة عنه إلى الجمهور المستهدف بالرسالة وهم (الناس جميعًا).

سابعًا: تنقية الرسالة بالتثبت والمصدر الموثوق:

إن القرآن الكريم تولّاه الله بالحفظ وأن الحكمة - وهي السُنَّة النبوية- قد تمَّ وضع ميزان دقيق لمضمونها، ونقل ذلك المضمون

بسلامة ودقة إلى جمهور المؤمنين، والمصدر الموثوق لأي خبر للإعلام في نظر القرآن يستند إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) ﴾ [الحجرات].

وفي هذه الآية: دليل على أن خبر الفاسق لابد من التثبت فيه بخلاف خبر العدل الصادق، فهو مقبول وليس بحاجة إلى التبيّن، وهو ما يسميه مصطلح الإعلام الحديث بـ (المصدر الموثوق).

وخبر الواحد يعتبر موثوقًا ؛ لأن خبر الآحاد حجة في الأحكام والعقائد والأدلة على حجية خبر الواحد كثيرة، وفي الرجوع إلى إحدى أمهات المؤمنين عند الخلاف شاهد على ذلك من عصر الصحابة **ش**، وكان الرسول ﷺ يرسل الأمراء والقضاة والرسل إلى الأطراف - وهم آحاد- لقبض الصدقات وحل العهود وتبليغ أحكام الشرع [11].

والحقيقة فإن هذه الآية ما زالت موضع اهتمام المفسرين وعلماء الرواية وأصول الفقه، لتطرقها لموضوع مهم في حياة المسلمين وهو كيفية قبول الرواية وتصديقها، وقد استدل فريق من العلماء بهذه الآية

(11) عبد النبي عبد الرحمن بن علي الشريف، التعليقات المفيدة، 1984م، ص37-38، دار طيبة، الرياض.

على جواز العمل برواية الآحاد، وهي الرواية التي يرويها واحد، أو اثنان، أو ثلاثة، ما لم تبلغ حدَّ التواتر.

وفي هذا يقول آخرون: [الركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملًا، ومعاملة مضمونه معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة، والنظر في الجملة مما تتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفًا ابتدائيًّا، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل].

فالخبر إن كان متواترًا، أو محفوفًا بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه، كان حجة معتبرة من غير توقف فيها، فإن لم يكن متواترًا، ولا محفوفًا بما يفيد قطعية مضمونه، وهو المسمى بخبر الواحد اصطلاحًا كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه، وإن لم يفده بحسب شخصه، وكل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علمًا، وهو العلم الحقيقي، أو الوثوق والظن الاطمئناني المعدود علمًا عادة.

إذا تمهَّد هذا فقوله تعالى: ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات:6]، يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة، وحصول العلم بمضمون الخبر، عندما يراد العمل به، وترتيب الأثر عليه، ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء، ونفي ما نفوه في هذا الباب، وهو إمضاء لا تأسيس [12].

(12) مرتكزات أساسية في الإعلام القرآني، 1977م، ص36-37، طهران.

وهكذا نرى أن خبر الواحد العدل (غير المتهم بالفسوق) مقبول باعتباره خبراً من مصدر موثوق، وقد أعطى سياق القرآن الكريم (في آيات كثيرة الأخلاق التي يجب أن يتميَّز بها رجل الإعلام بوجه عام والتي يتميَّز بها الرسول الكريم ﷺ بوجه خاص، ومن هذه الأخلاق: الصبر، وحسن المعاملة، والجدل بالتي هي أحسن، والإعراض عن الجاهلين والمنافقين، والبُعد عن الغلظة) [13].

وقد كان البيان في القرآن ولا يزال ﴿ غير ذي عوج ﴾ من نقل الرسالة إلى المتلقين المؤمنين ولم يحتاج ذلك إلى تحرير الرسالة لغويًّا؛ لأن المخاطبين كانوا هم العرب أنفسهم، ولكن بمرور الزمان واتساع المكان احتاجت الدعوة القرآنية في بلاغها إلى تفسير القرآن وشرحه وبيان السُنَّة وترجمة المعاني إلى اللغات الأخرى، وكانت هذه المرحلة اتصال من الدرجة الثانية بين الفقهاء والعلماء وبين العامة، والقرآن بمضامينه اللغوية والبلاغية الحيّة تفرد على لغة العرب التي كانت سائدة وقت نزوله فأعجزهم.

ولما لم يجاروه في بلاغته ومضامينه وإحكامه كان هذا التفوّق في (الرسالة) وسيلة في ذاتها للإعلام القرآني تفوق به على سائر فنون

(13) د. عبد العزيز شرف، الإعلام ولغة الحضارات، 1977م، ص20، دار المعارف، القاهرة.

الاتصال التي استخدمها العرب في جاهليتهم الأولى مثل الشعر والخطابة والمناظرة، والقرآن (رسالة) ووسيلة بهذا المفهوم، وفي هذا يقول علماء الإعلام المعاصرون بأن الرسائل الإعلامية تُقاس قوتها بمقدار ما تحدثه الرسالة من تجديد حينما يتم قياس اللغة الحاملة لتلك الرسالة، ولذلك اعتبر مارشال ماكلوهان الرسالة هي الوسيلة، فالمناهج الحديثة لدراسة وسائل الاتصال اليوم لا تعتمد على تحليل مضمون الرسالة وحدها، وإنما تعتمد أيضًا على الوسيلة نفسها وعلى القالب الثقافي الذي تعمل فيه هذه الوسيلة، ولذلك نجد أن خير مثال لمثل هذا الاستنتاج العلمي هو الإعجاز البلاغي والعلمي والثقافي الذي أحدثه القرآن في مجتمع الجزيرة العربية حين نزل، فعطَّل القرآن وسائل مثل الشعر بأغراضه المختلفة والمناظرة والخطابة، بل وأوجد أنماطًا جديدة من المفاهيم للشعر والنثر على حد سواء.

ثامنًا: القرآن (رسالة للاتصال الحضاري):

يعتبر الاتصال الثقافي، أو الحضاري خاصية عصرنا هذا؛ عصر (العالمية المركزية) أو العولمة. وفي القرآن الكريم نجد منابع للأفكار الكونية ذات الصبغة العالمية، وهو بذلك المصدر الأساس للمعرفة البشرية، بل أصلها فيما نرى ونعتقد، لأنه مقياس الخطأ والصواب، وعلى أساسه نبني ثقافتنا وعلومنا ومعارفنا ونقدّمها إلى العالم في شكل

فلسفة وأخلاق وفنون وآداب ومعرفة وفكر.

لذا فإن اتصال الوحي السماوي بالأرض نقل إلينا (رسالة) أحدثت تغييرًا جذريًّا في الحضارة الإنسانية والاجتماع البشري، وكان ذلك منطلقًا في التاريخ وتحوّلًا، وهذا ما يقوله القرآن نفسه: ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾ [إبراهيم].

بإذن رب الناس هدى الرسول ﷺ الناس إلى نور العلم، فأخرجهم بذلك من ظلمة الجهل، وفي هذا وضوح تام ببيان (الفاصل بين النبوّة والألوهية) فلا يختلط الأمر أبدًا، إذًا فالوحي كوسيلة اتصال هو فاصل بين عهدين، بين عهد عبادة الناس لآلهة في الأرض، وبين عبادتهم لإله عليٍّ كبير ليس كمثله شيء، إنها نقلة ثقافية في مجال العقيدة من عالم جعل الإله مادة محسوسة إلى عالم معنوي آمن بالله والغيب والرسول والكتاب والوحي.

إن الأثر الحضاري للاتصال بالوحي على البشرية لا يخفى على ذوي العقول، لأنه أثر نشأ على رسالة السماء، وقام به تاريخ، وبنيت عليه مدنية وحضارة لم تقم على الفلسفة اليونانية أو القوانين الرومانية أو وصايا القساوسة، إنه اتصال خالق البشر بالبشر بكتاب افتتحه

بكلمة ﴿ اقرأ ﴾. ﴿ علم ﴾ به الإنسان ﴿ بالقلم ﴾. ﴿ على الإنسان ما لم يعلم ﴾. وكانت أبرز معالم الاتصال الحضاري الذي أحدثه الوحي القرآني في مجالات هي [14]:

1. التوحيد في مواجهة التعدد.
2. الصدق في مواجهة الأساطير.
3. الوضوح في مواجهة الرموز.
4. الإيمان في مواجهة الإلحاد.
5. اليقين في مواجهة الشك.
6. المسئولية الفردية.
7. الإنسانية.
8. الالتزام الخلقي.
9. تكامل القيم الخيّرة.
10. الاعتقاد بالبعث والجزاء.
11. الحرية المنضبطة.

(14) أنور الجندي، مرجع سابق، ص111-112.

إن المعرفة الثقافية التي نقلها الاتصال بالوحي استهدف توثيق صلة الإنسان بربه، وتعريفه بالمسئولية الملقاة عليه، وتنظيم علائق البشر، فالاتصال بالوحي كان أخطر حدث كوني على الإطلاق؛ لأنه قرر مصير النوع الإنساني، وبالوحي تمَّت المعرفة بالله، والتفريق بين الحق والباطل، والخير والشر، ومن ثَمَّ تم بناء العالم على مبادئ تؤمن الطريق للوصول إلى الـلـه عبادة وكفاحًا، وموتًا وخلودًا إلى مصيره الذي يقرره له.

فالوحي اتصال نقل المتلقين للرسالة من عبادة البشر إلى عبادة الـلـه، وحررهم من أغلال الذنوب والآثام إلى حرية الطاعة وراحة الاستقامة وطلاقة الرضا عن الحق والذات، وسمّى القرآن هذه الراحة بالحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الـلـهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) ﴾ [الأنفال].

إن الرسالة في (الاتصال القرآني) دعت إلى تنمية الوعي بالكون والحفاظ على نظام الحياة وعمارة الأرض والإصلاح فيها. إنه اتصال معرفي كبير ونهضة ثقافية عظمى أحدثت عالمًا جديدًا لم يكن موجودًا قبل الوحي والرسالة.

فالاتصال الرباني بالوحي وسيلة غيبية لأن القرآن تكليم من الـلـه

الجليل، وإنزال على لسان جبريل، ولأن الوحي لغة هو الرسالة والإلهام والإشارة بالحواجب والكتابة بالقلم. يقول الفيروزآبادي في (بصائر ذوي التمييز): ويقال إن الوحي مختصٌّ برسالة مقترنة بخفة وسرعة، فسمّى التنزيل وحيًا لسرعة جبريل في أدائه، وخفّة قبوله على الرسول ﷺ، وإن جعلته من معنى الإشارة ؛ فكأنَّ الرسول ﷺ اطلع على المراد بإشارة جبريل، وإن جعلته بمعنى الكتابة فكأن جبريل أثبت آيات القرآن في قلب النبي ﷺ، كما يثبت المكتوب في اللوح بالكتابة. قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) ﴾ [الشعراء].

مما تقدَّم من قول الفيروزآبادي نرى أن في الوحي عملية اتصالية متكاملة باختصاصها بنقل رسالة مقترنة بالسرعة مع خفة، أي: سهولة في التلقّي. وكذلك ما يحمل المعنى اللغوي من مدلول الإشارة في لغة العرب، وهذا مطابق لمصطلح الاتصال علميًّا في وصف الرسالة بالإشارة التي قد تكون باللغة، أو غيرها. إن الوحي الرباني - ولا عجب - بذا يكون أكمل أنواع الاتصال على الإطلاق في خواصه ورسالته ومحتواها وحالات التلقّي وأنماطها، وبذلك نكون قد قدمنا فهمًا متجددًا للاتصال الذي ظل مقصورًا في نطاق الاتصال العادي، أي غير الغيبي، أو المعنوي، مما حصر علم الاتصال في الاتصال

البشري الذي يجري في المجتمع الإنساني فحسب.

والاتصال القرآني اتصال (موضوعي في منطقه الإعلامي) وفي بلاغته بحيث يعطي الآخر المعادي أيضًا مساحة كاملة في عرض بضاعته، حيث امتازت الرسالة الإسلامية بالقرآن الكريم بالتفضل على أهل الباطل بنقل دعاويهم الفاسدة بلغته الراقية وألفاظه الجميلة دون أن ينقل هذا الفساد بلغة ركيكة، أو فاسدة مثله، وتفضّل القرآن الكريم على أهل الباطل بتوثيق باطلهم وقصصها، فصارت خالدة بخلود القرآن العظيم تفضلًا به عليهم، وتفضّل القرآن الكريم على هؤلاء بعرض حججهم الباطلة كاملة غير منقوصة إنصافًا لهم في موازنة كاملة في مواجهة الحق. أليس في هذا دليل على عظمة الاتصال القرآني، ورقي منطقه، وسمّوه في الاعتراف بالآخر المعادي ؟... فهذا يكفي الحق عزًّا ومجدًا [15].

* * *

(15) أبو زيد الإدريسي، في برنامجه (معالم قرآنية) بقناة «اقرأ» الفضائية، حلقة 22 يناير 2008م.

الفصل الثاني

طبيعة الاتصال أثناء النوم

نماذج الاتصال بالرؤيا الصَّادقة

(أ) تعريف الرؤيا:

الرؤيا حالة من الإبصار النومي الذي يعطي صورًا مدركة لدى النائم بمعانيها أحيانًا، أو صورًا مجردة من المعاني تحتاج لتفسير مكوّناتها بعد الاستيقاظ.

والرؤيا من المصادر التي تعترف بها المعرفة الدينية من أخذ المعلومات الموثوقة والصحيحة، وقد كانت وسيلة من وسائل المعرفة والإلهام للأنبياء والرسل وهي كذلك للصالحين، والرؤيا الصادقة قد تأتي للمؤمن، وقد تصدق رؤيا الكافر والفاسق، كما ثبت في قصة عاتكة بنت عبد المطلب، ولا تصدق رؤيا المنافق لأنه كذّاب؛ لأن صِدْق الرؤيا ينبني على صدق الحديث.

روى البخاري قول عائشة : [إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح] [16] - أي واضحة جليَّة - وتصديق الرؤيا من كمال

(16) صحيح البخاري، باب بدء الوحي، ج1، ص5، حديث رقم (3).

الإيمان، وقد صدّق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام رؤيا ذبح ابنه إسماعيل.

والرؤيا قد يكون محتوى رسالتها الاتصالية خاصًّا بالرائي، وقد يكون معنيًّا به شخص غير الرائي، أو قوم آخرون، وهي بذلك ليست اتصالًا ذاتيًّا لأنَّ الرؤيا لا تتم بإرادة ذاتية من المتلقي، وقد لا تعني مضمون الرسالة الاتصالية متلقيها كما ذكرنا، والواقع أن الناس يتلقون الرؤيا بإلهام غيبي من اللـه تعالى لنقل بعض المعلومات الغيبية إلى عالم الشهادة والمعلوم، وهي ليست صورًا مدركة من الذاكرة، أو العقل الباطن كما يقول النفسانيون؛ لأن هذه ليست رؤيا وإنما أضغاث أحلام. وأضغاث الأحلام خيالات النفس، ويقول فيها ابن سيرين: إنها إما نتيجة لحديث النفس أي أمانيها، أو نتيجة لإلقاء الشيطان، وهو نقيض وضدٌّ لما يلقيه المَلَك، أو لما يأتي به الإلهام الرباني في الرؤيا، فهي بذلك لا تدخل في نطاق الرؤيا الصادقة، وفي قصة النبي يوسف عليه السلام قول أبيه: ﴿ لا تقصص رءياك ﴾ [يوسف: 5]، فالمصطلح العلمي له هو (الرؤيا) وللخيالات قال مستشارو العزيز بمصر القديمة: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) ﴾ [يوسف]. هذا ما نود شرحه بشأن التفريق والمفاصلة بين الرؤيا والحلم اصطلاحًا.

والقاعــدة في هــذا مــا يجــري في كــل اتصــال عــادي، إذ إن الاتصــال

الشفاهي مثلًا فيه الحديث الكذب والصحيح، والأخبار والمعلومات المنقولة بوسائل الاتصال الإلكترونية فيها الأخبار الصادقة والمدسوسة، وكذلك فإن الاتصال في الحلم يكون مكذوبًا حين يكون مصدره المرسل له كاذبًا كالشيطان، أو النفس الفاجرة.

على أن الاتصال بالرؤيا اتصال ذو معالم تصدِّقه في الواقع، بينما الأحلام تكذب لأن الأحلام دائمًا ما تتعلَّق بالماضي ومخزون ذكريات العقل وأهواء النفس، بينما الرؤيا متعلّقة دائمًا بالمستقبل، قريبًا كان أو بعيدًا.

وبعض الأحلام المتعلّقة بالأهواء النفسانية هي نوع من الاتصال اللاإرادي الذاتي، والرؤيا ليست اتصالًا ذاتيًّا. وبذا نخلص إلى أن الرؤيا اتصال غيبي ينقل المعلومات إلى الرائي دون إرادته أو تطلّع منه أو انتظار.

والصورة المجرّدة من المعاني التي يدركها الرائي تحتاج إلى تفسير وشرح وإيجاد قانون العلاقات بينها والواقع المعاش، فيظهر هنا دور (المعبِّر) كوسيط يحتاج إليه الرائي لفك شفرة الرموز الواردة في الصور المجردة من المعاني، فيقوم المعبّر بشرح وتفسير هذه الرموز بالإلهام. وإلهام المعبِّر مثل إلهام الرائي صاحب الرؤيا، لأنه بمجرد ما يقوم الرائي بقصّ الرؤيا على (المعبِّر) فإن الـلـه يلقي في روع المعبِّر معاني

الصور التي أدركها الرائي في حالة النوم، ولكن هذه المرة يتم إدراك المعبّر لذلك في حالة اليقظة، كما يقول ابن سيرين: إنه ما تُقَصّ عليه رؤيا إلا رآها وكأنها تجري أمامه حوادثها. وتلك خاصية أخرى للرؤيا الصادقة حينما تلقى على معبّرها يتلقاها تمامًا كما يتلقى النائم وهو يقظان ويتفوّق على رائيها بأن يدرك أسرار رموزها وصورها، فكأنما الرؤيا فيلم صامت يحوّله المعبّر إلى صور ناطقة، أو معلّق عليه.

ولذا يمكننا القول: إن العملية الاتصالية بالرؤيا تتكون أطرافها من الرؤيا وهي الرسالة، والرائي وهو المتلقي، والمعبّر وهو وسيط بين الرائي والرؤيا في شرح رموز الرسالة الاتصالية وإدراك محتواها، والرؤيا نوع من المعرفة الدينية الضرورية التي يحتاج إليها الناس تمامًا كالكتاب والخطبة والوعظ والنصيحة والأمر بالمعروف، ولذلك يسمّى السؤال عن معاني الصور الواردة في الرؤيا بالفتوى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ [يوسف: 43]، وفي قوله تعالى: ﴿ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) ﴾ [يوسف]، إذ لو لم تك من أعمدة المعرفة الدينية لما جاءت متممة لمعارف الأنبياء، وقد اجتبى الله تعالى نبيَّه ورسوله يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وخصَّه بهذه المعرفة أكثر من غيره، فكانت إحدى معجزاته وأولى تلك المعجزات عنده، والشاهد الأهم من ذلك قول ابن سيرين أنه أخذ هذا العلم من

نبي اللـه يوسف في الرؤيا أيضًا. وكان الصحابة رضوان اللـه عليهم يقصون رؤياهم على رسول اللـه ﷺ فيتأولها وهو أمر معلوم في السيرة ومفصَّل.

وأهمية الرؤيا كوسيلة اتصال تأتي من كونه شأن يعرض لعامة الناس كما يعرض لخاصتهم وعلمائهم. وهي من مصادر المعلومات المفيدة للمسلمين في حياتهم الخاصة والعامة، وأنواع الرؤيا كثيرة وأنماطها مختلفة حسب حالة الصفاء الروحي لدى المتلقي وقربه من مقام التلقي الإلهي الرباني الصالح، وهناك أنماط من الاتصال الصوتي دون صور مدركة في بعض أنواع الرؤيا نسميها رؤيا اصطلاحًا ؛ وهذا النوع الخاص يسمى (الهاتف) فيسمع النائم نداء بمعاني وكلمات مفهومة، وهي عادة معلومات لا تحتاج إلى تأويل، وقد تحتاج إلى تأويل إن صحب النداء صور من أي نوع أو غموض في العبارات ومعاني الكلمات ؛ أو لغز محيِّر، فعند ذلك يدخل المعبّر في الدائرة الاتصالية ليقوم بدوره بالتفسير والتأويل للمتلقي ما تلقاه من صوت (الهاتف المنادي) أو ما أشكل عليه مما أدركه من صور مصاحبة للنداء الصوتي.

ويقول ابن سيرين: إن النداء يؤخذ كما جاء، أي تأتي الكلمات بذات المعاني التي تفيدها معانيها في الحياة العادية [17].

---

(17) **انظر:** مقدمة (تعبير الرؤيا، لابن سيرين).

وأهم خاصية في الاتصال بالرؤيا أنه اتصال يتم في حالة النوم، وذلك يميِّزه عن كل أنواع الاتصال الأخرى الغيبية والعادية لأنها جمعيها تجري في حالة اليقظة، والرؤيا تؤكد أن للإنسان قدرات غير عادية وفوق القدرات الطبيعية في تلقي رسائل اتصالية تأتي إليه، إذ إنه مخلوق بما يؤهله لتلقي رسائل عادية بالحواس الخمس المعروفة، وبحواس غير معروفة وإدراك يحتاج فهمه لشرح مكنونات الجوانب الخفيَّة من الإنسان.

(ب) المنهج العلمي لدراسة ظاهرة الرؤيا:

إذا اهتمَّ العلم المعاصر بالاتصال العادي بشكل كثيف، فإنه يُعاب عليه أنّه لم يستطع أن يخترق حاجزًا مرسومًا له سمّي (بالعلم التجريبي) ليرتاد مجال الأبحاث التي تدرس حقائق الاتصال الغيبي فلا يكتفي بدراسة الاتصال العادي.

وإذا كان البحث عملية فعلية يواجه بها الباحث مادة أمامه فإننا نتعرض للرؤيا بإجراءات بحثية نستقصي من خلالها حقائق الرؤيا ومكوناتها كوسيلة اتصال تلقى رسائلها ملايين الناس، وعقل الإنسان يتعامل مع الاتصال بالرؤيا كحادث واقعي يجري يوميًّا بمنهج استنباطي لإدراك حقيقة أطراف العملية الاتصالية وتحليل محتوى الرسالة الإعلامية الواردة فيها، وقد أجرينا ملاحظة علمية

لظاهرة الرؤيا من خلال المشاهدات الواقعية، وكذلك للقوانين العلمية التي وضعها العالم المسلم (محمد بن سيرين) الذي كشف عن قواعد تحليل الرسالة الإعلامية بالرؤيا، وهي موثّقة في كتابه المعروف بـ(تعبير الرؤيا)، وقد تأكّد أن الاتصال بالرؤيا اتصال حقيقي يجري يوميًّا يفيد معلومات مهمة للأفراد والمجتمعات بل الدول والحكومات، ومصالح الأفراد والجماعات في معاشهم وتجارتهم وغير ذلك.

وقد ذكر رواد التيار المثالي في المعرفة كما تواضع الخبراء على تسميتهم أن الحقيقة العلمية تكمن في الفكرة، والرؤيا تحمل فكرة دائمًا. وبالمنهج الاستنباطي الصرف المثالي نرى أن الفكرة الواردة تاريخيًّا عن الرؤيا وبما يؤكّده المنهج الاختباري عن أن الرؤى تتحقق في الواقع دائمًا تكامل المنهجان أمامنا لنحدد من أين تبدأ عملية المعرفة العلمية في تحليل الاتصال بالرؤيا.

والمقدّمات المنطقية في منهجنا لفهم (عملية الاتصال بالرؤيا) تبدأ بإدراك الرؤيا عند كل الناس وحاجة الناس إلى (المعبِّر) باعتباره محلّلًا خبيرًا ومختصًّا بعلم خاص لهذا النوع من الاتصال الذي موضوعه كل الرؤى التي تعرض للناس في نومهم، وهكذا فإن البحث موضوعي علمي في هذا الجانب من حيث إن أنماط الاتصال الغيبي، ونتائج

الأبحاث على الرؤيا ليست أحكامًا قيمية وإنما نتائج تجريبية واقعية معاشة في حياة كل الرائين لرؤى صادقة، تمامًا كما أن الاتصال الغيبي له نتائج واقعية معاشة في الكتاب والسُنَّة التي بين أيدي الناس، وحينما نختبر الرؤيا فإننا نلاحظ ما جرى فيها من صور مدركة دون إضافة أو تحريف والقول الفصل في النتيجة لمكنونات الرسالة الاتصالية التي وردت في الرؤيا وزمان الرؤية زمان نومي ومكانها قلب الرائي واختبارها بعد اليقظة في الحياة العادية المعاشة بالاستنباط. وللاستنباط عند المعبّر قواعد علمية؛ فيشير كل رمز ورد في الصور المدركة إلى حقيقة واقعية في الحياة المعاشة، ولذلك لا يستطيع أحد أن يدعي أن المعرفة بالرؤيا خرافة؛ لأن كل هذه الأدلة العقلية والواقعية تؤكد قدرتنا على اختبار الرؤيا وشرحها واستنباط معانيها، بل ومعايشة هذه المعاني في الحياة المحسوسة.

والرؤيا حاجة فطرية في الإنسان لا يستغني عنها ولم نسمع أحدًا من الناس أنكر وجود الرؤيا، أو قال إنه: لم ير رؤيا بنفسه وهذا أكبر دليل على أن الرؤيا حقيقة علمية ماثلة، والحقيقة النسبية معلوم أنها حقيقة علمية في العلوم الإنسانية بيد أن للرؤيا بُعدًا عمليًّا يؤديه بكشف ستار المستقبل للرائي، وتدخل بذلك في نطاق (برامج العمل) أو المعرفة النفعية، وهذا يتفق مع ما يذهب إليه أهل مدرسة العلم في خدمة الإنسان.

والرؤيا ظاهرة طبيعية، ولذلك فهي موضوع في العلم التجريبي، وهي ليست ظاهرة اجتماعية. وهي ظاهرة نفسيه مجالها النفس البشرية (النفس التقيّة) في غالب الأحيان، ويتم التعامل معها باعتبارها ظاهرة منقولة شفاهة غير قابلة للتوثيق أو الاسترجاع المادي إلا بالتدوين والكتابة لوقائعها، ويتم البحث فيها عن طريق منهج (المقابلة) بين الرائي والمعبِّر.

(ج) مستوى البحث في الرؤيا:

الظاهرة المشاهدة هنا هي الرؤيا، وتتم عملية الاتصال النومي التي شرحناها في إطار إجراءات شرحناها فيما سبق وتأخذ ثلاث مستويات منهجية هي:

1. وصف الظاهرة المستهدفة وهي الرؤيا (قَصُّ الرؤيا).

2. إجراء التصنيف لأحداث الظاهرة (إدراك المعبِّر لها).

3. تحليل الظاهرة وكشف الحقائق (التعبير للرؤيا).

إذًا حينما يحكي الرائي رؤيته فإنه لا يتدخل فيها من جانبه بتغيير الحقائق أو المشاهد، بل يرويها كما حدثت، وإنه منهيٌّ عن الكذب في الرؤيا. وهذا يوضح أن الشرع حرص على المحافظة على سلامة ودقة (الرسالة) الاتصالية بالرؤيا باعتبارها وسيلة مهمة من وسائل المعرفة الصحيحة. ثم إن المعبّر يبني تصنيفه للمعلومات والرموز والمشاهد

الواردة في الرسالة المرئية في النوم، وإنما يجري ذلك وفق علم خاص بذلك باعتباره اختصاصيًّا في التصنيف وإدراك حقيقة هذه الأمور. وهذه هي المرحلة المعملية لتشريح الرؤيا علميًّا، وتفكيك أجزائها، وإعادة ربط تلك الأجزاء وفق قانون العلائق العلمية الذي يحكم ظاهرة المنام، فتأتي المرحلة الثالثة وهي المرحلة الحاسمة في مستويات البحث المنهجي العلمي في الوصول للحقائق في الظاهرة المنامية، وهي مرحلة التحليل لمعاني الرموز وفق قاموس التعبير ودقائق هذه المعاني ولطائف الإشارات التي تومئ إليها الصور وتلك الرموز. ويتم سَبْر أغوار الظاهرة المنامية بالوقوف على طبيعة علائق الرموز والمشاهد المرئية والكلمات والأصوات المصاحبة فيما بينها، وفيما بينها وبين الرائي من جهة، والحياة والمحيط الذي يعيش فيه الرائي من الجهة الأخرى، وهذا ما يسمى بالتفسير العلمي، وبذلك نصل إلى الهدف النهائي للبحث العلمي في الرؤيا؛ وهو الإجابة على السؤال: لماذا جاءت هكذا ؟ وكيف ستقع في الواقع المحسوس ؟!

إن ظاهرة الاتصال بالرؤيا ظاهرة جديرة بإجراء دراسات متصلة ومعمّقة وواسعة يشارك فيها العلماء والخبراء النفسانيون وعلماء الاتصال والعقيدة والفقه، وهذا المبحث الخاص بالرؤيا يطرح سؤالًا معرفيًّا مهمًّا للبحاثة المسلمين.

وهو: لماذا لم تدخل أبحاث الرؤيا الإسلامية حتى الآن مفصلة في مناهج علم النفس في كلياتنا ومؤسساتنا التعليمية ودراساتنا المعاصرة في العالم الإسلامي ؟! وأين موقع رجل مثل محمد بن سيرين عند علماء النفس المسلمين ؟ !

ويمكننا أن نثبت علميًّا الجدوى العلمية في برامج نفعية لمعنى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: « **إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَىٰ مِنَ الـلـه، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يكره، فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ** » [18]، بأن نقول: إن الذي لا يصدق في حديثه في حياته حالة اليقظة جدير بأن لا يرى الرؤيا الصادقة ليس لمجرد كونه غير مستحق لها وحسب، ولكن لأنه لا ينتفع منها إذا رآها، إذ يمكنه أن يكذب فيها بالزيادة، أو النقصان والحذف كما فعل صاحبا يوسف في السجن، فلا ينتفع بالتأويل لكذبه على المعبِّر.

فالصدق في الحديث يستدعي الصدق في الرؤيا، والصدق في الرؤيا يستدعي الصدق في قصّ الرؤيا، وهذا بدوره يستدعي تعبيرًا

(18) صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، ج15، ص18، حديث رقم (5857).

صحيحًا نافعًا لصاحب الرؤيا، أو من رؤيت له.

وهذا يمكننا أن ندرجه في إطار دائرة البحث العلمي وحقائقها والتي تقول بها فلسفة العلوم؛ لذا فإن الفرض العلمي الثابت هو: إن صدقت رؤيا الرجل فإن الرائي صدوق في حديثه، وإن تكرر صدق الرؤيا عنده في أزمنة مختلفة فهذا يعني دوامه على صدقه، ولذلك فإن الاتصال بالرؤيا يضيف بُعدًا جديدًا في علم النفس باعتباره معيارًا علميًّا لكشف الصدوق من الكذوب، إذًا هكذا نجد علاقة سببية بين الرؤيا الصادقة، وعدم الكذب، وخاصية الاتزان بين صدق الحديث وصدق الرؤيا باعتبارهما عاملي توافق وارتباط.

هكذا ووفق قواعد العلم المعاصر التجريبي نكون قد أثبتنا أن الاتصال بالرؤيا وسيلة من وسائل الاتصال الصحيحة لنقل الأخبار والمعلومات، قابلة للملاحظة والتصنيف والتحليل والتجريب، وهذه إضافة للعلوم الاجتماعية الحديثة جاءت إليها الآن من (علم العقيدة ومن خلال مصدرية القرآن والسُنَّة) وأن علم الاتصال ليس مجالًا مقصورًا على باحثي الدراسات النفسية والاجتماعية والإعلامية والسياسية فحسب، بل لعل هذا عين الغاية التي نرجوها في تأصيل المعارف الحديثة إسلاميًّا، فإرجاع العلوم المعاصرة في مستواها الأكاديمي البحثي إلى أصول في العلوم الإسلامية ومنابع الشريعة

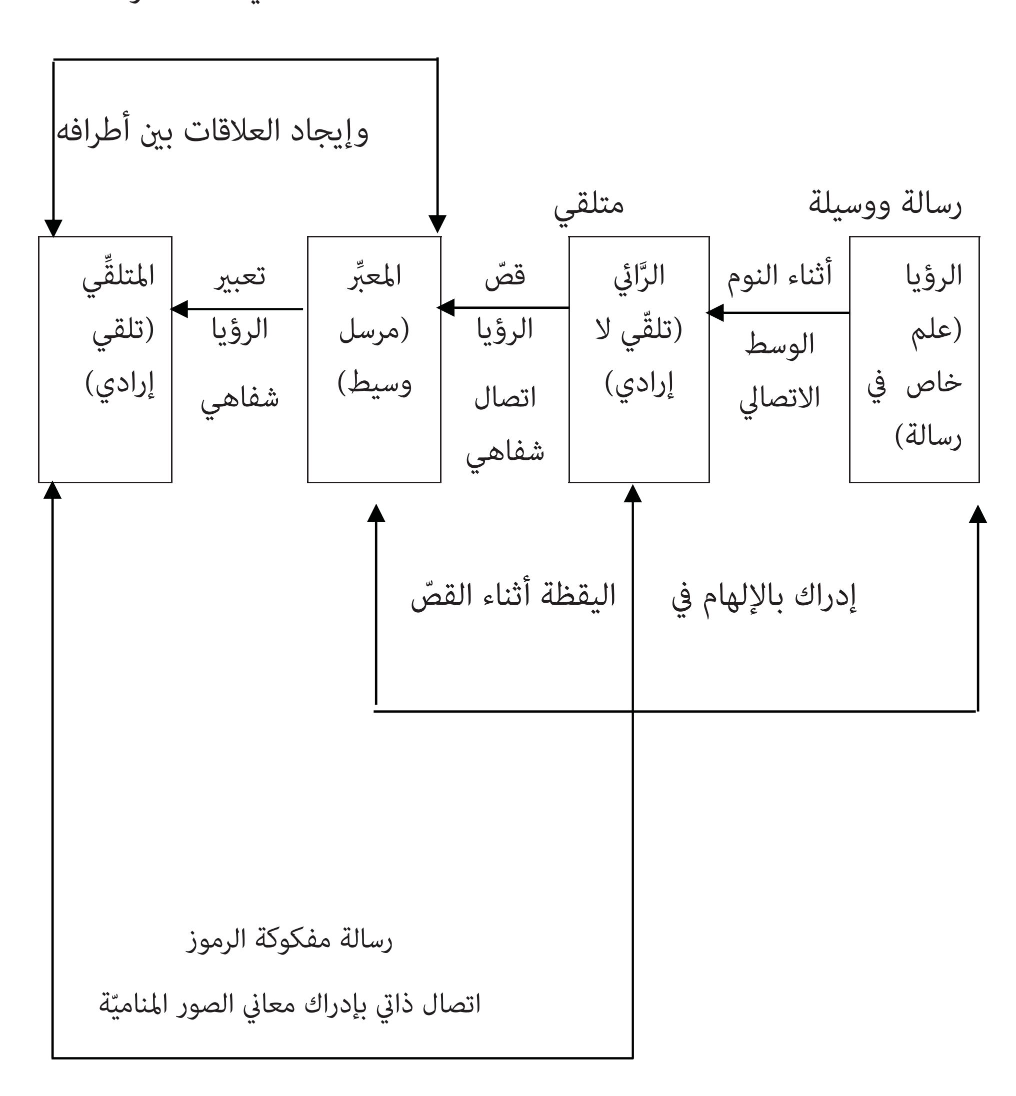
جهد مطلوب من مراكز الدراسات والأبحاث والجامعات وطلاب العلم والمدرسين له قبل كل أحد؛ لأن ذلك في حق أولئك وهؤلاء واجب عيني.

* * *

أطراف العملية الاتصالية بالرؤيا

اتصال الرائي في حالة النوم بوصول رموز مرئية لمدارك نفسه وعين قلبه هو نقطة البداية في العملية الاتصالية، وبعد أن يتم الإدراك بكيفية خاصة لا ندرك كنهها ولكننا نعيشها ونعايش آثارها في الحياة - وهي بذلك حقيقة ماثلة- نتأكد بأن الرؤيا هنا وسيلة للاتصال، ورسالة في ذات الوقت، والوسط الاتصالي الذي تحدُث فيها هذه العملية (وسط منامي) ينقطع فيه المتلقي - وهو النائم- عن حال حياته العادية إلى حال النوم، والنوم وضع فيزيائي خاص يجمّد الإنسان فيه بعض حواسه فينقطع بذلك عن المعايشة الكاملة لما حوله كما كان يفعل في حالة اليقظة.

والرائي في العملية الاتصالية هو الطرف الثاني وهو (المتلقي) اصطلاحًا، ويعايش رسالته بنفسه، وهي لا تصدر منه وإنما تصل إليه من مصدر الإلهام بالرؤيا. ويتلقّى الرائي رؤيته من غير انتظار منه، أو طلب، أو رغبة.

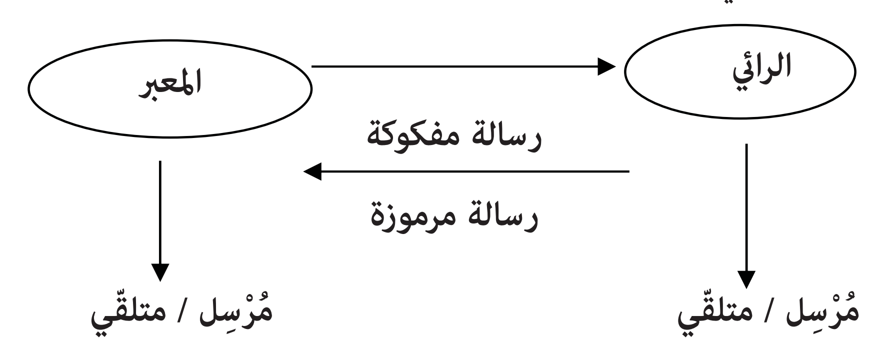


نموذج محمد بن سيرين في الاتصال بالرؤيا

وحينما يصحو النائم ويحدث الانتقال من حالة الرؤية المنامية إلى الرؤية الحسيَّة يدرك المتلقّي أن رسالة (غير عادية) منامية قد وصلت إليه في ليلته أو منام نهاره ؛ فيعمد إلى تأويلها (أي فك رموز وشفرات الرسالة) بنفسه، وقد ينجح في ذلك ويحدث التلقّي الكامل، أو ينجح جزئيًّا، أو يعجز فيلجأ إلى المعبِّر الذي يقوم بعمل الاختصاصي الخبير. فيدخل (الظاهرة المنامية) إلى معمل التشريح بالعلم الخاص عنه والذي له قوانينه وقواعده التي تحكمه فيقوم بالتحكم في الظاهرة وتصنيفها من حيث المرئيات والمعلومات، ويقيم نقاط الروابط والعلائق والمتوافقات المتناقضات فيما بين الواقع والرؤيا، وفيما بين رموز الرسالة نفسها، فيخلص إلى حقيقة معلومة، ويتم بذلك تعبيره للرؤيا، فتغدو الرسالة واضحة المعاني والرموز والإشارات لدى النائم الرائي.

والاتصال الذي يجري بين الرائي والمعبّر اتصال شخصي شفاهي مباشر، يقص فيه الرائي خبرته المنامية وخبره أيضًا للمعبّر، لأن الرائي لا يقدم فقط وصفًا للرؤيا كخبرة منامية وإنما يقدم خِبْرَتهُ أثناء تلقي الرؤيا المنامية لأن ذلك كله يشكل جزءًا من الرسالة المنامية بكاملها وهي (الرؤيا الصادقة).

المرحلة الثانية في العملية الاتصالية:



الاتصال المواجهي الشافهي المباشر ومرحلة تحليل الظاهرة المنامية

(وهي رسالة متعاكسة) بين طرفين هما الرائي والمعبّر

ويقوم المعبّر بتوصيل رسالة مفكوكة الرموز إلى الرائي ليقف على حقيقة ظاهرته المنامية.

ومن خصائص الاتصال بالرؤيا:

1. الرؤيا رسالة، ووسيلة لتوصيل معنى ؛ ومصدر.

2. الرائي متلقٍّ للرسالة، ووسلية لنقل الرؤيا من حالتها المعنوية إلى حالةِ الظاهرة المنامية.

3. المعبّر مُتلقٍّ للرؤيا من وجهين:

(أ) أنه يسمع لقصّ الرؤيا شفاهة (اتصال مباشر).

(ب) أنه يتلقى معانيها أو مشاهدها إلهامًا بالعلم الخاص به، وهو علم التعبير أو التأويل (اتصال غيبي).

4. الوسط الاتصالي في حالة غير عادية هي حالة النوم، وفي زمن استحواذي (Obsession time) لا يقاس.

5. لا يستخدم الاتصال بالرؤيا أي وسيلة تعتمد على الحواس الخمس الطبيعية (الرائي متلقٍّ ووسيلة).

6. لا يتم تشويش في هذا الاتصال إلا أنه يمكن أن ينقطع الاتصال إذا انقطع الرائي عن (الوسط الاتصالي) وهو حالة النوم.

7. الاتصال يتم خارج إرادة المتلقّي (النائم).

8. الرسالة قد تأتي واضحة الرموز والمعاني وقد تأتي غامضة تحتاج لتعبير وتأويل.

9. يتم تدفق المعلومات (المنامية) على مرحلتين عند غموض الرسالة لفكّ الرموز في المرحلة الثانية.

10. الاتصال بالرؤيا اتصال خاص، ولكن محتوى الرسالة قد لا يكون خاصًّا بالرائي وحده.

خلاصة القول في هذا الجانب:

إن الرؤيا الصادقة علمٌ خالص، وإنها تندرج في إطار المعرفة

الواجبة البحث والتحليل، بل ونرى أنها (جديرة بالتحليل الكيفي لمحتوى الرسالة الاتصالية فيها) وأنماط الاتصال وأطراف العملية الاتصالية؛ لأن العلم الذي يهتم بتحليل الخيال المحض مثل الأعمال الأدبية والروايات والقصص والأفلام الخيالية باعتبارها معرفة من الفنون القولية والتعبيرية، وكذلك تحليل الموسيقى واللوحات والفنون الجملية ؛ نعجب كيف أغفل البحث العلمي ظاهرةً ثابتة بالتجريب والتكرار والتعميم بين كل الناس، مثل ظاهرة الرؤيا الصادقة والتي لا نعتقد أن نظريات (سيجموند فرويد) قادرة على تحليلها وتقديمها كفرعٍ علمي تطبيقي مثل: علم الاتصال والإعلام.

* * *



الفصل الثالث

فِقْهُ الاتصال المُبَاشِر في الإسلام

أنواع الاتصال المباشر

الاتصال الروحاني التعليمي

أولا: بالهجرة والرحلات والتداخل الثقافي في الحج والعمرة:

إن الاتصال الثقافي الروحي قد جاء في القرآن الكريم حين تم التبشير به بالرؤيا الصادقة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللـهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللـهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) ﴾ [الفتح]، فزيارة البيت الحرام والأراضي المقدَّسة والمشاعر الأخرى تنقل للحاج خبرة عملية جماعية مع مسلمي العالم بأنواعهم واختلافهم الفكري وتنوعهم الثقافي في فهم وتذوّق الإسلام، وبذا يتصل التاريخ بالجغرافيا التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية، بأن يرى الحاج مكان مهبط الوحي في غار حراء، وتبرك برؤية البيت مثابة الناس ورمز الحنيفية، ويتعرّف على تاريخ الدعوة الإسلامية من آثارها ومعالمها الحيّة ليكوِّن خبرة عملية تطبيقية للإسلام في مهبط وحيه، فينتقل روحانيًّا في الزمان السحيق كما ينتقل بجسمه إلى مكان أحداث تاريخ الإسلام والبعثة النبوية، والحاج في رحلة الاتصال الثقافي هذه مشاركٌ نشط واعٍ بكل ما يزوره من الآثار الإسلامية، وهو في حالة

تفكُّر وتكوين لخبرة واقعية عن عقائد ومُثل، فتتحول الدروس الفقهية والسيرة النبوية إلى وقائع يعيشها، ويتم إدراك الصلة بين النظرية والتطبيق والمثال الواقع.

إن المعتمر أو الحاج للمشاعر المقدَّسة يغتنم وجوده في تلك البقاع الطاهرة فيأخذ على عاتقه مهمة الحصول على حقائق ومفاهيم حول البيت الحرام والمسجد النبوي والروضة الشريفة والآثار المرتبطة بالحرمين المعظمين، ويتيح له ذلك الاجتماع البشري الهائل معاني الوحدة والتماسك والانتماء لهذا التاريخ مع كثير من الناس، والأداء الجماعي للمشاعر القدسية أشبه برحلة تعليمية تطبيقية للولاء لله تعالى بتوحيد اللـه والقبلة إليه في بيته المكرّم.

وتزداد معلومات الحاج والمعتمر عن حقائق الإسلام بهذه الرحلة الروحانية التعبدية التعليمية الضرورية له، إن التغير الذي تحدثه رحلة الحج، أو العمرة في المحيط الروحاني للفرد المسلم بانتقاله من مكان لمكان تجعله يشعر بالقوة المادية لرسالة الإسلام والقوة الروحية لها والقوة البشرية في وقت واحد مع مسلمي العالم وفي مكان واحد.

إن رؤية مهبط الوحي، والبيت قبلة الصلاة، ومقام الروضة، ومنبر رسول اللـه ﷺ، والسعي بين الصفا والمروة الذي يرسل إشارة لعمق تاريخ الدعوة من لدن سيدنا إبراهيم وإسماعيل وزيارة مواقع

الغزوات والهجرة وغير ذلك، يحدث ربطًا عظيمًا بين تعاليم الإسلام بآثار مادية ماثلة أمام الرائي، فترقى العاطفة الروحية وتتوحّد المشاعر التعبدية بين المسلمين بهذه الصلة الروحانية المتحدة في الزمان والمكان فيما بينهم.

الاتصال الثقافي من أجل التجانس والتوحّد بين المسلمين يتم برباط هذه الرحلة التعبدية التي يلتقي الناس فيها، فيتحركون من أصقاع الأرض البعيدة يحثّهم دين واحد ورغبة كريمة وأشواق إلى آثار الإسلام العظمى في الأرض التي تحكي جهاد هذا الدين ورسالته وتاريخه، إن البرنامج الواحد المرسوم لشعيرة الحج يجعل منه وسيلة دقيقة للاتصال الروحي المتجرد من الأهواء بهدف عطاء الخير والبر بين الحجيج في هذا الإطار العالمي الثقافي، وفيه تجربة حقيقية وإعداد لمجتمع صالح لما بعد الحج، والمتاب بعصمة الجوارح واللسان في تربية جماعية، وهي استجابة لنداء سيدنا إبراهيم في الأرواح وهي في عالم الذر أن اللـه وضع لكم بيتًا للحج فإليه حجوا.

إن الـدين الإسـلامي بفريضـة الحـج جعـل الاتصـال الروحـاني والثقـافي ركنًـا مـن أركانـه، وهـذا يوضـح لنـا أهميـة الاتصـال الجمعـي المبـاشر المتمثـل في شـعائر الحـج والعمـرة وخطبـة عرفـات وزيـارة الحـرمين وغيرهـا مـن المشـاعر المقدَّسـة والـرحلات؛ فـإن لهـا قيمـة عظمـى في

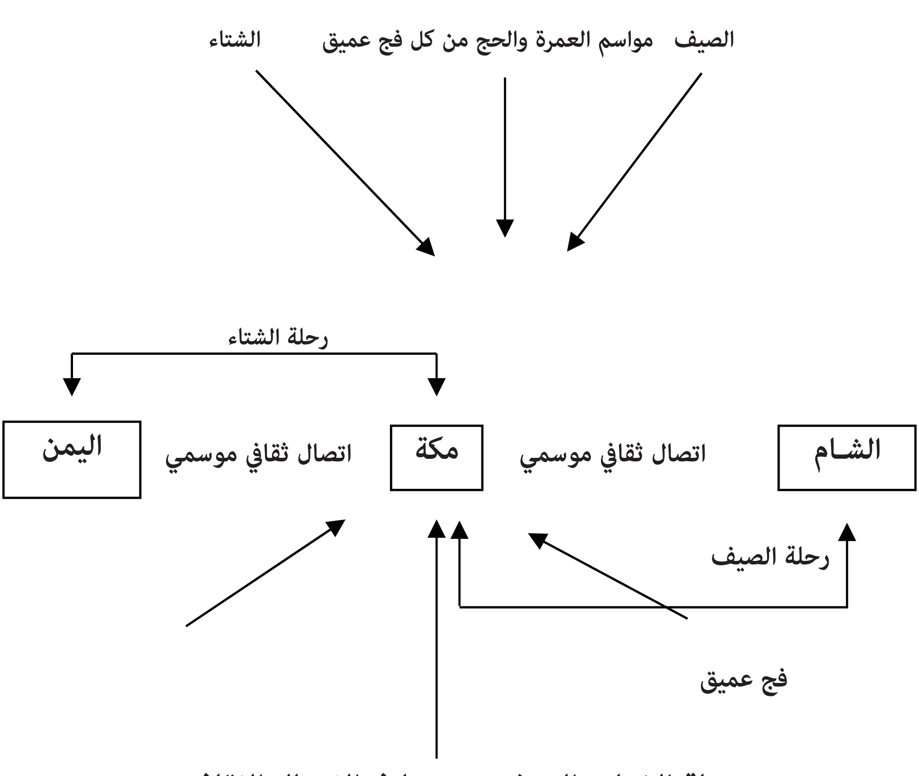
الاتصال الحضاري والثقافي بين الشعوب، وتاريخ الأديان مرتبط بهذه الرحلات الاتصالية، فقريش التي يبدأ نسبها من سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام سُمِّيت بلقب فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، الذي أظهر مقدرة فائقة في إعداد القوافل التجارية المارة بمكة ومساعدة أصحابها، وهو الأمر الذي جعل أهل مكة يطلقون عليه لقب (قريش) لأنه كان (يقرش) عن حاجة الناس، أي: يسدها بماله، كما أطلقوا على بنيه من بعده أيضًا (بنو قريش) لأنهم كانوا يقرشون أهل الموسم التجاري عن الحاجة، أي: يمدونهم بما يبلغهم حاجاتهم وساعد على ازدهار نشاط قريش في الميدان التجاري موقع مكة مركزًا للاتصال الحضاري.

وينسب إلى هاشم أنه أول من سنَّ لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. وقد عقد هاشم هذا معاهدات مع الروم البيزنطيين في الشام ومع التتابعة حكام اليمن، وكذلك مع الفرس في العراق، وتم نزع السلاح في سوق مكة وسوق عكاظ، وتم عقد (حلف الفضول) نتيجة لرحلة الشتاء والصيف، والذي شارك في عقده قبل الإسلام رسول ﷺ، وتم توقيع العقد في دار عبد الله بن جدعان وكذلك شارك عليه الصلاة والسلام في رحلة الشتاء والصيف. ومثل هذه الرحلات تؤدي لتعارف الشعوب بعضها

بالبعض مما ينتج تلاقحًا ثقافيًّا وفكريًّا وتلاقيًا روحيًّا يؤكد على أهمية الاتصال الحضاري بالهجرات والرحلات في العقيدة الإسلامية.

وفي الحج والعمرة اتصال ما بين المجموعات وتبادل للمعارف والمعلومات، واتصال شخصي بين الأفراد يجعل من رحلة العبادة ائتلافًا معنويًّا يحقق معاني الترابط الروحي عند البيت إمامة المسلمين المعنوية.

نموذج عملية الاتصال الثقافي المباشر بالحج والعمرة



رحلة الشتاء والصيف ودورها في الاتصال الثقافي

ثانيًا: الاتصال الجمعي بالمنبر والخطابة:

استخدام المنبر في الاتصال المباشر قديم قِدَم الحضارة الإنسانية، والمنبر أكثر وأنجع من استخدمه الأنبياء والملوك في إقناع الناس، أو استمالتهم لتبني آرائهم، أو العمل بالأفكار الواردة في الخطبة.

والخطبة اتصال جمعي (Mass communication) مؤثِّر لاشتماله على استخدام العاطفة وحاستي السمع والبصر ووحدة المكان الذي فيه القائم بالاتصال مع المتلقين.

وفي الآثار المصرية القديمة وجدت خطب مكتوبة باللغة الهيروغلوفية على الحجارة، وكذلك كانت للحضارة الأشورية دورها في الخطابة، وأكثر ما ازدهرت الخطب في التاريخ في عصور الحرب والقتال بين الأمم، ولذا ارتبطت الخطبة بالزعامة القبلية والدينية والسياسية باستمرار، والخطبة تزيّن المحافل والمؤتمرات والمجتمعات والشعائر، فهي ركن من أركان الحياة والاجتماع الإنساني لا يبطلها تطوّر وسائل الاتصال الحديثة ولا تقلل من خطورة شأنها بل تزيد من ذلك.

وكلّما كانت الحرية السياسية وحرية العقيدة والمستوى التعليمي والثقافي لأمة ما في القمة كانت الخطبة في ازدهار ونمو باعتبارها أنجح الوسائل للاتصال الجمعي المباشر، وإذا انكمشت الخطابة وانعدمت

فتلك أمة مكبَّلة ذاوية في سبات وبيات، فهي دليل الأمة وحيويتها، لما وضعت الحضارة اليونانية قواعد حرية الفكر والتفكير والتبصير في القرن الخامس قبل الميلاد ازدهرت الخطابة في المجتمع اليوناني القديم، واشتدت المناظرات بين الآراء المختلفة، فرقي فن الخطابة تطبيقًا وعلمًا، واشتهر خطباء اليونان مثل بيركليس وديمستنيس وغيرهما، وكانت الخطابة في الحضارة اليونانية إحدى أعمدة العدل في المرافعة في المحاكم [19].

أما العرب فقد ازدهرت عندهم الخطابة قبل الإسلام في مواسمهم وأسواقهم، وفي الإسلام بلغت الخطبة شأوًا بعيدًا في أداء دورها وأهميتها، فصارت ضمن شعائر الإسلام التعبدية، ووسيلة مهمة من وسائل الاتصال الجمعي من أجل الدعوة إلى قيم الدين وأحكامه وأخلاقه.

الاتصال الجمعي بالخطبة المنبرية:

شرع الإسلام الخطبة المنبرية في مواضع كثيرة لأهميتها الاتصالية وقدرتها على إقناع الناس واستمالتهم، وفعاليتها في تطوير عقيدتهم نحو التطبيق الأمثل والمعايشة الصادقة والاقتداء المستقيم، فهي بذلك

(19) طه حسين وآخرون، التوجيه الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ب ت.

وسيلة إعلامية مهمة جدًّا لحياتهم الروحية والمادية وركن مؤثر في تنظيمهم الاجتماعي والأسري.

ومن هذه المواضع خطبة الجمعة، وهي فريضة أسبوعية واجبة على الذكور مندوبة للنساء، والخطبة ركن من أركان صلاة الجمعة، ويقال: إن الذِّكر المقصود به في آية الجمعة إنما هو الخطبة ﴿ فاسعوا إلى ذكر اللـه ذروا البيع ﴾ [الجمعة: 9]، والذِّكر من التذكير والتذكُّر، والتذكير من الخطيب بمعاني الإسلام ومبادئه وقيمه، والتذكُّر من السامعين باستعادة هذه المعاني ومعايشتها نفسانيًّا. والخطبة لها أقسام وشرط هي:

إذ تبدأ بالحمد والتوحيد والصلاة والسلام على رسول اللـه ﷺ، ثم الوعظ والوعد والوعيد، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء والصلاة على النبي ﷺ، فالاستغفار للمسلمين والمسلمات والتوجيه لأمر الدنيا الذي هو متعلّق بالآخرة في الخطبة الثانية، وختمها بالتوحيد والتحميد والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ.

ومن أغراض خطبة الجمعة نجد أن الرسالة الاتصالية المضمنة في محتواها هي:

1. الحمـد لله عـلى نعمائـه الظـاهرة والباطنـة، وهـي نعمـة الإسـلام

والعافية والمتاع الدنيوي، وفيه ربط بين الدنيا ومتطلباتها، والآخرة ومآلاتها.

2. الصلاة على النبي ربط للسامعين بمعين العلم الرباني ومعدن الحق الروحاني نبي الإسلام إمام المؤمنين والمسلمين وسيد ولد آدم أجمعين. وفيه ما فيه من توحيد القلوب نحو نور النبوة ومقامها وعظمة ذلك المقام، وهذه أيضًا تخدم وحدة الصف الإسلامي في الدنيا، وتؤكد وحدة المصير في الآخرة وحسن الختام.

3. من أهداف خطبة الجمعة التأكيد على التقوى، وذلك لتعميق مفهوم المراقبة لله تعالى عند المسلمين.

4. الوعظ والوعد والوعيد والأمر والنهي وسائل للتفريق بين الخير والشر في الدنيا ومصير أتباع كل فريق في الآخرة وهي تميّز بين الحق والباطل وجمع بينهما على سبيل المقارنة.

5. الدعاء والاستغفار والصلاة على النبي والدعوة إلى الخير في أمر صلاح الدنيا، كلها طلب من الله واستعانة به وتوسل برسول الله ﷺ للتمسك بالحق والثبات عليه، ودعوة الناس في أمر دنياهم لذلك، وحث للناس على ترك الباطل والرجوع للحق.

هذه الرسالة الإعلامية التي توجه الدنيا مطية للوصول لخير الآخرة، جامعة للمفهوم الإعلامي في الإسلام ومعاني الاتصال

الدعوي الذي يقوم محتوى خطابه الاتصالي على عمارة الدنيا بالخير وبالحق الذي يفضي بصاحبه للنجاح في عاقبة أمره في الآخرة بعد الممات.

من مزايا خطبة الجمعة الاتصالية:

(أ) أنها خطبة دورية أسبوعية تشكل برنامجًا منتظمًا للمراجعة الذاتية للجماعة المسلمة نهاية كل أسبوع.

(ب) أنها رسالة اتصال تتم في (وسط اتصالي قدسي هو بيت اللـه) بكل ما فيه من تعظيم وحرمة وطهر قرب المحراب وعلى المنبر إنابة عن الدور النبوي بإحياء هذه الشعيرة كما أحياها رسول اللـه ﷺ.

(ج) أنها اتصال مواجهي جمعي مباشر بين الخطيب والسامعين يسهّل فيه التفاعل بنظام رائع (بالصلاة على الرسول ﷺ)، وبالاستعاذة عند الوعيد وبالاستغفار مع الخطيب، وهذا عين النجاح في الخطاب المباشر بتلقي الخطيب وهو القائم بالاتصال رجع الصدى فورًا دون تأخير ومدى تأثير رسالته على متلقيها.

(د) تَهَيُّؤ الحالة النفسية للمتلقين بالتهيؤ لأداء الشعيرة بالطهارة والقدوم المبكر للمسجد، واستقبال المحراب وانتظار الخطيب حتى يصعد في شوق وتطلّع للخطاب.

(هـ) تنوّع أغراض (محتوى الرسالة الاتصالية) مما يجعل الخطبة

جذّابة بتعدد محتوياتها ومكوناتها وأجزائها.

(و) ضبط (سلوك المتلقّي) بشرطية الاتصال وعدم اللغو أثناء الخطبة والنهي عن شق الصفوف للمتأخرين عن الموعد.

(ز) توحّد المظهر الجمعي للمتلقين يُعينُ على توحُّد الشعور أثناء تلقي الرسالة الاتصالية لخطبة الجمعة، وإقامة الصلاة تمام لذلك بصلاة جهرية تركّز معاني ما ورد في الخطبة من طاعة لله بالقيام والركوع والسجود، وتمثّل معاني التوجيه والإرشاد الذي دعا إليهما الخطيب في خطبته.

وقد استخدم الإسلام المنبر والخطابة للتبليغ والدعوة في مناسبات كثيرة غير صلاة الجمعة، إلا أن صلاة الجمعة موسم اتصالي خطير للغاية، وإذا وُظِّفت صلاة الجمعة وخطبتها في يوم واحد بموضوع واحد في كل بقاع العالم الإسلامي فإن ذلك يعني جمع قلوب المسلمين على قلب رجل واحد جمعًا لا فكاك لأحد منه، ولذلك فإنَّ أخشى ما يخشاه أعداء الإسلام والمسلمين أن يأتي يوم على الإسلام من جديد تكون فيه خطبة الجمعة واحدة موحّدة الموضوع في كل أنحاء بلاد الإسلام. وإنَّ ذلك يتطلَّب عملًا نحو الوحدة الإسلامية مثل قيام مؤسسة ترعى خطبة الجمعة على مستوى الدول الإسلامية كما في منظمة المؤتمر الإسلامي، أو رابطة العالم الإسلامي، إن توحُّد خطاب

الجمعة الموجّه لأمة محمد ﷺ يومًا ما لتوحيد قلوبهم نحو هدف واحد لخير الإنسانية والحق، فذلك أمل معقود وليس ذلك على اللـه ببعيد.

نموذج الاتصال الجمعي المباشر بخطبة الجمعة

(قائد تغيير اجتماعي بالقدوة الحسنة)

الخطيب

السامعين (متلقين) مهيئين للرسالة الاتصالية

* الوسط الاتصالي مساعد لأهداف الرسالة بطهارة المتلقي روحيًا وبدنيًا وقداسة المكان وزينته وجماله.

* وحدة المكان والزمان في صلاة الجمعة (شرط صحة).

عناصر النَّجاح في الجمعة: (الرسالة - المرسِل - المتلقّي - الوسط)

وهنـاك مواسـم للخطابـة والاتصـال عـبر المنـبر تزدهـر في مجتمـع المسـلمين مثـل الأعيـاد والحـج في عرفـات وغـير ذلـك، وكلهـا تحمـل ذات

الأغراض والأهداف من الاتصال الجمعي المباشر الذي هو أكثر تأثيرًا من أي وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري حسب ما توصّل إليه الخبراء في هذا العلم، بل إن وسائل الإعلام فطنت إلى أهمية الصلاة والخطبة كوسيلة اتصال فعَّالة فعمدت إلى نقلهما نقلًا حيًّا على الهواء في معظم بلاد المسلمين؛ لأن الصلاة هي صلة بين العبد وربه، وهو اتصال ينمي في الإنسان الضمير الحي الذي يلتزم به الشرع وتعاليمه؛ فيكون رقيبًا على سلوكه، فيصير في اتصال روحاني يتوجه به نحو ربه بالقراءة والتدبر فيها والدموع والخشوع في طاعته لمولاه. كما يعبِّر بالركوع والسجود عن ذلّته وإخضاع كبريائه بقبول الأوامر الإلهية، وذلك هو التقوى، فالاتصال بالله تعالى بشعيرة الصلاة إعداد للنفس للتخلّي عن أنانيتها وشهواتها وفحشها ونهيها عن ذلك، وكذلك عن البطر والكبر وغسيل الروح وتطهيرها من خطايا ما تكسبها في يومها.

ثالثًا: الاتصال بالشعر والمديح:

ولئن كان الشعر وسيلة العرب الأولى في الاتصال المباشر قبل الإسلام، فإن دوره قد تراجع أمام معجزة القرآن والبلاغة النبوية وروعة الحديث الذي حصر الشعر في حدود ضيِّقة، فلم يعد الشعر بعد انتصار الإسلام وتمكينه الوسيلة الاتصالية الأولى في المجتمع، وإنما صار وسيلة ضمن الوسائل التي تخدم الهدف الإسلامي في نشر دعوة الحق.

بعد ظهور الإسلام انسلخت مفاهيم كثيرة من ذهن الشعراء الذين تأثّروا بالكلمة القرآنية وآمنت نفوسهم بما جاء به الإسلام فلم يعد أعذب الشعر أكذبه كما كان، بل صار أصدقه كما في قول حسان ابن ثابت س: [20]

وإنَّ الشِّعْر بَيْـتٌ أنْـــتَ قَـــائِلُه بَيــتٌ يقَــالُ إذا أنشَــدتُه صَــدقا

وقيل لحسان بن ثابت: لان شعرك في الإسلام يا أبا حسام.

فقال: يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الشعر الكذب [21].

ولدينا في السودان يعتبر التصُّوف الإسلامي مركزًا مهمًّا في دائرة الدعوة إلى اللـه ورسوله، فالإسلام تمكّن من قلوب أهله، ومحبة الرسول ﷺ توجه قلوبهم نحو الخير والعمل بالآداب والشمائل والاقتداء بها في حياتهم.

فتطوَّر شعر المديح على يد شعراء من أمثال المادح الفذ حاج الماحي، وود سعد، وعلي ود حليب، وجاء فتح جديد في نهاية القرن العشرين على يد الشاعر المادح الشيخ عبد الرحيم وقيع اللـه الشهير بالبرعي شيخ الزريبة، والذي قدّم آلاف القصائد التي تدعو إلى اللـه

(20) **انظر:** تاريخ النقد الأدبي، طه إبراهيم، دار الحكمة، بيروت.
(21) تاريخ الشعر العربي، د. نجيب البهيتي.

والذكر والشكر والإحسان والمعاملات الخيرة بين الأرحام والجيران والإخوان، وسارت بمدائحه الركبان بالأشرطة المسموعة والمرئية، وكثر محبوه على مستوى السودان، وازدانت الطرق الصوفية ببعض مديحه، واستعانت بذلك في نشر المحبة والخير في مريديها، هذا النجاح الذي يلعبه المديح في السودان يجعله من مصاف الشعر العامي الجزل الذي يوجّه الأمة نحو آداب الإسلام وقيمه وعظيم معانيه.

والاتصال بالمديح المباشر يتم في الميادين العامة والطرقات والحلقات والزوايا والمساجد والأضرحة والتكايا، وكل ذلك من أنماط الاتصال الشعري المباشر الناجح، وقد تم توثيق هذا النوع من الشعر الممدوح بالأشرطة السمعية والبصرية، فصارت أحد مصادر الرسالة الإعلامية المهمّة في الدعوة إلى الدين وقيم التقوى والبر والإحسان عبر وسائل الاتصال الجماهيري من إذاعة وتلفزيون وفيديو وحواسيب وغيرها.

والرسالة الاتصالية في الشعر الإسلامي والمديح النبوي تعتمد على التطريب والمعاني الجزلة والقيم المؤثرة في النفوس بما يحقق اتصالًا مباشرًا ناجحًا، يراعي الإطار النفساني للمتلقين وتأهيلهم لهذا اللون من الفنون القولية ذات الأثر الإعلامي الفاعل مع الالتزام بقاعدة الصدق في القول.

وقد تمكَّن الإسلام من نفوس الأمة، وحفظ الناس القرآن، وبعد أن اكتمل نزوله وتمَّت فيه دراسات مفصَّلة في علومه وقراءاته وتفسيره، وتوسع الفقه بالدين، عاد الناس إلى الشعر بعد برهة من العصر الأول بعد التابعين.

ولا نعتبر الشعر الذي يصدر عن الكذابين والمنافقين شعرًا في إطار وسيلة الاتصال الإسلامية، لأنه شعر يناقض جوهر الدين بالكذب، ولا يستمع إليه إلا الغاوون الذين هم في كل وادٍ يهيمون، لأن أمثال هؤلاء الشعراء يقولون ما لا يفعلون، وقد نهينا ألّا نقول إلّا ما نفعل، خوفًا من مقت اللـه وغضبه وعذابه، وعملًا بالصدق في الحديث والقول، لأن قول الكاذب إرجاف في المجتمع المؤمن بالله ورسوله [22].

والأسس التي يقبل بها الإسلام الشعر هي:

(أ) أن يكون فيه قيمة روحية، ودعوة لطهارة النفس ونبذًا للفحش والرذيلة والهزيمة والضعف والفرقة والشتات.

(ب) أن يراقب الشاعر ربّه فيما يأتي به من قول وفعل.

(ج) ألَّا يكذب الشاعر في شعره.

---

(22) روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة، ط 8، 1980م.

(د) ألَّا يدعو إلى باطل أو محرم.

(هـ) أن يبتعد عن العصبية والتنابز بالألقاب.

(و) أن يحترم كرامة الإنسان في شعره ويرعى حقوقه.

وإذا انحصر الشعر العامي والفصيح قديمه وجديده فإنه يصلح أن يكون رسالة ذات هدف اتصالي ناجح في مجتمع السلم والإيمان.

رابعًا: الاتصال الشخصي:

(أ) النمط الإيجابي: (نموذج محاور الاحتساب):

إن الاتصال الشخصي بين أفراد مجتمع المسلمين هو الأصل في علاقات هؤلاء الأفراد، إذ إن النظام الاتصالي الشخصي في المجتمع المسلم، نظام يقوم كلُّه لإقامة الخير العام، وإيقاظ الضمير العام , وقواعد هذا الاتصال موضّحة تفصيلًا في الفقه الإسلامي وما يهُمَّنا هنا، ما يقع في نطاق علم الاتصال.

يقوم الاتصال الشخصي بين الأفراد على أساس جلب مصالح أفراد ذلك المجتمع ودرء المفاسد عنهم كقاعدة عامة، ويمكن تحديد مجالات الاتصال الشخصي فيما يلي:

1. الاتصال لأمر بمعروف، أو نهي عن منكر.

2. الاتصال للنصيحة للخاصة والعامة.

3. الاتصال الشخصي المتداخل في التواصي بالحق وبالصبر، وهي قواعد السلوك الاجتماعي في الاتصال الشفاهي الشخصي، أو حتى عبر وسيط بين أفراد الاجتماع الإسلامي، وطرق الاتصال وأنماطه تحددها قواعد وأصول التشريع من الكتاب والسُنَّة والقياس والإجماع.

ولكننا نعني هنا بشكل الاتصال وأسلوبه، وهو ما يقع تحت دائرة (علم الاتصال الحديث)، والاتصال في المجالات المذكورة اتصال مباشر دون وسيط، وإلا فإنه يخرج من دائرة الاتصال المباشر إلى نطاق الاتصال الجماهيري، أو عبر وسيط باستخدام وسيلة اتصالية، وفي المجالات المذكورة فإن الاتصال الشخصي أنسب لطبيعة الرسالة التي تؤديها وتحملها، وأنجح في أداء الغرض عقلًا وشرعًا، وهذا النمط من الاتصال نمط مفيد وإيجابي يعمل لخير المجتمع العام وإحقاق الحق فيه، وإذا غاب مثل هذا النوع من الاتصال بمجالاته الثلاثة المذكورة، فإن المجتمع يفتقر إلى الوحدة الشعورية بالانتماء العقائدي الواحد، والشعوب أيضًا تفتقر إلى وحدة الفكرة والقيم لدى أفرادها، وإذا حلَّ بأحد المجتمعات مثل هذا الشعور الضار فإن أنواع الفراغ الناجم عن غياب هذه الأساليب الثلاثة للاتصال لابد من أن يمتلئ سلبيًّا بالأهواء والعواطف، فتغيب النصيحة فيفشو الكذب، ويتوقَّف

التواصي بالحق فيعلو الباطل ويتزيَّن بثوب الحق، ويفتقر كل إنسان إلى الصبر فيغدو وحشًا كاسرًا عجولًا يدعو بالشر دعاءه بالخير ؛ وإذا توقف الأمر بالمعروف برزت حالة من الهوى يرى فيها الناس المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، ثم يتطوَّر الأمر إلى أن يتم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كما جاء في الحديث فيتحول الاتصال من الإيجابية إلى السلبية والضرر، ومثل هذا المجتمع لا يمكن أن يحمل صفة مجتمع المسلمين بعد ذلك.

ومن الممكن القول: إن الاتصال الشخصي في أساليبه الثلاثة (اتصال شخصي مقيَّد)؛ لأنه يتقيَّد بقواعد الشرع في هذه الأنواع من الاتصال الشفاهي، وما سوى ذلك من اتصال شفاهي يتم بين أفراد المجتمع، يعتبر نشاطًا عاديًّا يمارسه الإنسان المسلم وغير المسلم باعتبار أن استخدام اللغة للتفاهم في المصالح والحياة اليومية وإن كان نمطًا متفشيًا للاتصال الفردي الشفاهي فإنه لا يعبّر عن نظام اتصالي قائم بنفسه مثل المجالات الثلاث المذكورة، حيث جعل التشريع الإسلامي هذه الأنماط الثلاثة من الاتصال نظامًا اجتماعيًّا قائمًا بأمر الكتاب والسُنَّة، مما يجعله يدخله في تصنيفنا العلمي وفي نظريات المجتمع المسلم في الاتصال الشخصي بين أفراده في إطار منظّم، وله أهداف معلومة ومرسومة.

ويمتاز الوسط الاتصالي في هذه الأساليب الثلاثة بالإقرار بمبادئ الشرع من قبل (المُرسِلْ والمتلقّي)، وإن كان المرسل هو المبادر بالاتصال، إلا أنه في ذهن المتلقي أمر مشروع ومقبول وحق له عليه. وبذلك يتوحد بالإسلام وتعاليمه (الإطار المرجعي) لدى المأمور والآمر؛ والناصح والمنتصِح والمسْتَنصِح ؛ والموصِّي والمسْتَوصِي والموَصَّى والموصَّى إليه.

إن السلوك الاتصالي الشفاهي الضروري الإيجابي الذي أقرّه الإسلام بأنظمته الثلاثة التي أوضحنا أساليبها ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري؛ لأن (أي جماعة تحتاج إلى روابط يقوم عليها جمعها ومبادئ تحدد علاقاتها، وتحفظ حقوق أفرادها، لئلا يكون أمرها فوضى، فقد جُبل الإنسان على الأثرة، وحب الذات، وانطوت نفسه على كثير من الغرائز التي تحتاج إلى تقويم وتهذيب، حتى لا يطغى الإنسان على أخيه الإنسان.

ولن يستطيع المرء أن يعيش وحده في معزل عن الناس، فإن حياته مرتبطة بحياة غيره، ليتعاون معه، ويتبادل المنفعة الاجتماعية والمصالح المشتركة، وهذا معنى قولهم: (الإنسان مدني بطبعه) [23].

---

(23) منّاع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، ص12-13، (مؤسسة الرسالة)، بيروت.

والرأي الذي سقناه هنا جاء به صاحبه للدلالة على ضرورة وجود أنظمة اجتماعية كهذه التي شرحناها في نظم الاتصال المباشر الشفاهي والشخصي الإيجابي الذي وضعه التشريع الإسلامي ليقوم به أفراد المجتمع المسلم فيما بينهم، ولسد فراغ في المعلومات الضرورية في تناقلها فيما بينهم، وذلك النوع من النمط الإعلامي الاجتماعي بطرائقه الثلاث لا يوجد في المجتمعات غير المسلمة.

(ب) النمط السلبي للاتصال الشخصي: (نماذج الإرجاف):

الإشاعة والكذب والهَمْزُ في الخبر:

مع أن الأصل في الاتصال الشخصي المباشر بين أفراد المجتمع المسلم هو أن يكون اتصالًا إيجابيًّا غرضه الخير العام وهدفه المصلحة العليا لذلك المجتمع، فإن مجتمع المسلمين أيضًا قد يصيبه ما يصيب كل مجتمع إنساني من دواعي الانحراف والخروج عن المنهج بما يؤدي إلى اختلال النظام الاتصالي الإيجابي بالتحوّل إلى السلبية، وهذه طبيعة الأشياء، بل هي سُنَّة كونية لا تبديل لها، وبضدها تعرف الأشياء كما يقال، وأخطر ما يمكن أن يضر بالمجتمع المسلم من أنماط الاتصال الشخصي المباشر (Face to face communication): الخبر الكاذب الذي دائمًا ما يكون المصدر فيه الشخص غير العدل (الفاسق) في المجتمع المسلم، وأكثر أنواع الخبر الكاذب ضررًا هو ما يأخذ نمط

الاتصال الشخصي الكثيف بين الأفراد (Inter-personal communication) ونشر هذه الأخبار المضللة إنما تتم على نمط معروف في علم الاتصال، وهو (الإشاعة) التي نودّ معالجتها كنمط سلبي في مجتمع المسلمين، يتضرر منه الأفراد والمجتمع ونظامه على حد سواء، وسوف نكرّس تحليلنا على الظاهرة وكيفية معالجتها، وذلك بين تطبيقات العلم الحديث للاتصال والواقع المعاش مع هذه الظاهرة، إن نشر الكذب وتحرِّيه ممنوع ومحرَّم بين المسلمين ومتحرّي الكذب هو المصطلح المناسب (الناشر للشائعة)؛ لأنه ينشر الكذب معتمدًا أسلوبًا يضمن نجاح انتشار قولته تلك بين الناس، وأفراد المسلمين يعلمون أنهم محاسبون على ما يقولون، ولذلك لا يصدر مثل هذا العمل إلّا مع وجود ظاهرة فسوق (أي: خروج) عن الشرع في مجتمع ما ؛ يقول الـلـه تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) ﴾ [الزُّخرُف]، فالذي يستحضر الكتاب الذي يوثق الكذب الضار لا يقوم بمثل هذا الفعل، وذلك لأنه يستحضر معيّة الـلـه تعالى معه دائمًا: ﴿ألم يعلم بأن الـلـه يرى (14)﴾ [العلق]، ويقول الرسول ﷺ: «**أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الـلـه مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**» [24].

(24) مجمع الزوائد، ج1، ص225، حديث رقم (204).

وبهذا نستطيع القول: إن نشر الأكاذيب والشائعات والأخبار الضارة بالمسلمين ليست إلا من صفات الفسوق؛ لأن ذلك يخالف صريح النصوص الواردة.

ومن الطبيعي إذا عرفنا أن الاتصال الإيجابي المباشر هو أمر بمعروف وتواصٍ بالحق ونصيحة ؛ فإن كل ما يناقض ما عرف من الحق والنصح والوصيَّة الحسنة اتصال سلبي.

ولم يقدِّم لنا علماء الاتصال تعريفًا دقيقًا للإشاعة، وهي مرض اجتماعي يسري كالنار في الهشيم، وله آثار ضارة للغاية، وأكثر من عرَّف ظاهرة الإشاعة علميًّا قال: [إنها ضرب من الأخبار قد تتضمن قدرًا من الحقيقة في خضم من الأكاذيب المتداخلة، تتناولها الألسن بالتداول والتحريف والإضافة، وتهدف إلى غرس الشك في النفوس، أو إثارة العواطف والفتن] [25].

وهذا التعريف يفيد أن مثل هذه الأخبار أخبار متداولة شفاهة، وهي تدخل بذلك في نطاق الاتصال المباشر، وهذا لا يعني مطلقًا أن الإشاعة لا تستخدم وسائل الاتصال الجماهيرية أو غيرها، ولكن النمط المعروف والقديم بهذه الظاهرة هو النمط المتداول بالاتصال

(25) الشائعات وأثرها على المجتمع، قرشي فارس، الحكم الشعبي المحلي (مجلة) 1973م، عدد (12).

المباشر بالألسن ومجالس الأنس والمنتديات العامة والخاصة وغيرها من الأماكن، وعملية الترويج هي التي تعطي الإشاعة قوتها في التصعيد، ولابد لذلك من ظروف مواتية، وأكثر الظروف الملائمة لها هو انعدام الحقيقة، والغموض الذي يكتنف موضوع الإشاعة المتداولة، والترويج الشديد يؤدي إلى التصديق في ظل غياب الحقيقة، ولذلك يقول علماء الاتصال: إن أنجح وسيلة لمكافحة الإشاعة هو توضيح الحقيقة بما يمحو آثارها في نفوس المتلقين، وكان القرآن الكريم ينـزل ليكشف زيف الأخبار التي يروِّج لها المنافقون، بل كان المنافقون يخافون من نزول السورة القرآنية التي تكشف ما في صدورهم، ولذلك فإن مروِّج الإشاعة يخاف من وصول الحقيقة إلى الناس؛ لأنها تبطل مفعول خبره الكاذب الذي اجتهد في نشره بين الناس.

ويضع بعض علماء الاتصال الإشاعة في إطار الدراسات النفسية التي تتناول الحرب النفسية؛ لأنها ترتبط بالعواطف دائمًا وتستثمرها. وقديمًا قيل: إنه قد أشيع عن جنود جنكيزخان أنهم يملكون قوة خارقة، وأنهم يأكلون الثعالب، فخشيهم عدوهم وانهزم أمامهم. ومن أمثلة الحرب النفسية التي استخدمت فيها الإشاعة أنه أشيع ذات مرة في الهند أن المدافع قد تم تدهينها بشحم البقر فرفض الجنود الهنود

استعمالها لأن الأبقار عندهم مقدَّسة، وكما قلنا، فإن نشر الحقيقة كاملة وبسرعة تقضي دائمًا على الإشاعة. وقد قام أحد رؤساء السودان السابقين باستحداث برنامج تلفزيوني شهري يتناول فيه الرد على مروجي الشائعات بتعليقات على مضمونها، وبطبيعة الحال فإن لوسائل الإعلام الحديثة دورًا مهمًّا في القضاء على الشائعات أيضًا.

ومن أنماط الاتصال المباشر الشفاهي السلبية النكتة الضارة التي تستهتر بالقيم والأخلاق، وهي ضارة كالشائعة، ولها مفعول الانتشار لأنها ذات مذاق من الهزل والمرح الذي تميل إليه النفوس بطبيعتها، والمجتمع المسلم مجتمع جاد، سمح التعامل لا يهزأ أفراده بقيمه وعقيدته، أو أخلاقه، أو رموزه، ونهى القرآن عن الغيبة والنميمة والتنابز بالألقاب قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة (1)﴾ [الهمزة]، على أن النكتة الشفاهية البريئة من الغرض والمراء والنظيفة من الظن، لا ضير عليها؛ فإنها ترويح للقلوب التي إذا ما كلَّت عميت.

وفي تحليل سيكولوجية الإشاعة يقول الدكتور حسن أبشر الطيب: [لمعممي الإشاعات ومروجيها أساليب مختلفة في تصميمها وترويجها فهم في المكان الأول يضمون لها بعض العوامل الأساسية التي توهم بحقيقة ليست من أصلها وتقوي من الانفعال العاطفي الذي يقف عائقًا أمام التحليل المنطقي، وتسهِّل بذلك رواج الإشاعة

وذيوعها. وأولى هذه العوامل التي يعتمدون عليها، ويحرصون على وجودها، تلك الإيماءة من الحقيقة الصحيحة في كيانها، والتي يمكن التوهّم بأنها صحيحة، فهي المركز الذي تنطلق منه الإشاعة. ويعني هذا في كثير من الأحوال، تحويل بعض الأحداث الحقيقية وتجريدها من ظروفها وملابساتها الأصلية، وتقديمها على نحو مختلف يخدم هدف الإشاعة] [26].

من الرأي السابق نستطيع أن نخرج بركائز تعتمد عليها الإشاعة عند صانعيها ومروّجيها، فإذا استطعنا القضاء عليها نكون قد أتينا على الشائعة من قواعدها فيخر عليها السقف، وهذه الركائز هي:

(أ) الإيهام بالحقيقة بما يشوش التحليل المنطقي.

(ب) إحداث التوتر الانفعالي العاطفي بما يعطل العقل.

(ج) التحريف بإخفاء الملابسات الأصلية بالتضليل.

وهذا الأمر يتناقض مع الشرع بجملته؛ لأن الإيهام هو الكذب، وهو محرَّم، وتعطيل العقل بالعاطفة لا يجوز؛ لأن الشريعة هذبَّت العواطف وجعلت العقل مناط التكليف، إذ من لا عقل له ليس

(26) الإشاعة طبيعتها وأسلوب مقاومتها، د. حسن أبشر الطيب، مجلة الخرطوم، تصدر عن الإرشاد القومي، 1970م، الخرطوم.

مكلفًا في الإسلام، والتحريف وكتم الحقائق نوع من شهادة الزور، والخرس الشيطاني المنهي عنه. وهكذا يتضح لنا أن الاتصال الشفاهي السالب متناقض، بل ومصادم للشرع وللمصلحة العامة لمجتمع المسلمين.

ومروِّجي الشائعات يعتمدون أيضًا على الأسلوب الاستفساري والاستفهامي لزرع الشك في النفوس كما يعمدون إلى أسلوب التكرار، والتكرار المتردد تارة بعد أخرى، وهذه من طبيعة أهل الإصرار على الباطل: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف: 176].

فالشائعات قد تأخذ طابعًا عالميًّا مثل نشر أخبار في نهاية كل قرن بأن العالم قد قارب النهاية، أو أن كوكبًا ما سوف يصطدم بالأرض متزامنًا مع ظهور مذنّب كبير في تلك الأيام، ونسبة هذا الخبر إلى المراصد الفلكية، ولا يستغرب أن تنشر مثل هذا الخبر إحدى وكالات الأنباء العالمية المعروفة.

وقد قسَّم علماء الاجتماع الإشاعة إلى أنماط ثلاثة هي:

1. الحابية (Creeping).

2. الاندفاعية (Highly motivated).

3. الغاطسة (Diving).

والحابية هي تلك التي تنتشر في جو مفعم بالسرية والهدوء. والاندفاعية تنتشر بسرعة شديدة مع الهلع، أو الغضب، أو الفرح الغامر، وهي ترتبط بالأحداث المفاجئة، والغاطسة هي التي تنتشر في فترة زمنية محددة لظروف معيّنة ثم تخبو وتخمد، ولكنها تعود وتنتشر إذا تجددت ذات الظروف السابقة، فمثلًا شائعات الحرب العالمية الأولى تكررت في الانتشار أثناء الحرب العالمية الثانية. والحاجات البشرية في الظروف المتماثلة قد تتسبب في انتشار إشاعات متشابهة مثل انتشار أخبار أزمة المياه العذبة في العالم كلَّما قلَّت الأمطار في الدول الأوربية.

(ج) كيفية التعامل مع الأخبار الكاذبة والإشاعات:

اهتم القرآن الكريم بالدعوة إلى مواجهة الأخبار الكاذبة، وكشف ألاعيب الإعلام المضلل اهتمامًا بالغًا. وذلك بإيصال المعلومات الصادقة وتحصين الرأي العام وحمايته من الحرب النفسية والشائعات والتخريب الوجداني وتوجيه مجتمع المسلمين الوجهة السليمة.

وفي نطـــاق مواجهـــة الأخبـــار الكاذبـــة والإشـــاعات اهـــتم القـــرآن بـــالتركيز عـــلى أســـاليب أساسـية عديـدة، منطلقًـا مـن أسـس نفسـية وموضـوعية بالغـة الأهميـة لتكـوين الـدوافع وكسـب الاسـتجابة

والمواقف، وأهم هذه الأسس هي [27]:

1. التركيز على كشف الزيف وتعرية الإشاعة والدعاية المضادة وبيان الكذب والتناقض فيها، لإسقاط فاعليتها وتوجيه رد الفعل ضد مروِّجيها، والمتتبع للآيات القرآنية يجد ذلك بوجه خاص في آيات الحوار، والرد على الادعاءات، والدفاع عن الرسول ﷺ.

والآيات الدالة على هذه الخطوة هي:

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) ﴾ [محمد].

هكذا يحاكم القرآن الخصم ويتحداه، ويكشف تناقضه وتآمره، وكذبه، وتضليله بما يعرّيه أمام الرأي العام، ونتيجة لذلك يتشكّل

(27) مؤسسة البلاغ، مرتكزات أساسية، مرجع سابق، ص46.

حاجز بينه وبين المساحة البشرية التي يسعى إلى التأثير عليها، فيفقد ثقتها وتجاوبها معه. هكذا يكشف القرآن زيف الإشاعة ويعرّيها.

2. أسلوب الإسقاط: استخدم القرآن أسلوبًا إعلاميًّا له فاعلية نفسية تهز الخصم من داخله، وإشعاره بتفاهة شخصيته ومواقفه فتتكوّن عناصر الهزيمة في نفسه، ويتم استلاب الروح المعنوية والقدرة على المواجهة، وذلك بتوجيه الخطاب إليه باعتباره طرفًا هزيلًا، يوضع موضع الاستهزاء والسخرية، ونلاحظ هذا الأسلوب القرآني في توجيه الخطاب للمكذبين وأعداء الدعوة: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) ﴾ [الفرقان].

3. أسلوب الإهمال: وهو من وسائل الحرب النفسية، وذلك بعدم الاعتناء بالخصم وليشعر بعدم قدرته وضعف موقفه وضآلة قدره. وذلك بعدم الدخول في حرب كلامية معه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) ﴾ [المؤمنون]، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾ [الفرقان]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) ﴾ [القصص].

4. أسلوب الاستمالة بالحسنى: وهو أسلوب نفسي وجداني مؤثر

في المتلقي، وذلك بتوجيه الكلمة الجذّابة، والخطاب اللين، والاستهواء المؤثر عليه، قال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)﴾ [فصلت]، ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125].

ففي الاستمالة يستخدم القرآن رسالة إعلامية تناسب شخصية المتلقي، تشعره باحترامه، كما تحمل الرسالة في هذه الحالة مضمونًا يومئ بحسن النيّة نحوه، والحرص على حفظ مصالح وكرامة المتلقي، ولإنشاء علاقة حسنة معه، تكسب الود والثقة وتقبل الأفكار.

وقد وجه اللـه سبحانه وتعالى نبي اللـه موسى وأخاه هارون لأن يقولا لفرعون قولًا لينًا لعلّه يتذكر أو يخشى، وهذا معنى حسن النيّة بعدم فقدان الأمل في متلقي الخطاب الإعلامي مهما كان تجبّره وتشدّده في الباطل.

5. الرسالة الإعلامية ذات الإقناع والمنطقية: وذلك باستخدام المداخل النفسية والعاطفية والعقلانية والعلمية، بدعوة الطرف الآخر إلى الحوار والتناظر في الفكر والمنطق، ليكون المستجيب للرسالة الإعلامية منطلقًا من قناعة أكثر ثباتًا، وذلك بتحري الحقيقة، قال تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين (184)﴾ [الأعراف].

وفي هذه الآية ما فيها من أسلوب فتح الطريق أمام التفكير العقلاني في القضية المطروحة، وفيها ثقة الموجه للخطاب الإعلامي بنفسه وتفوقه بما يجعل الخصم في حالة من الشك تضعف قناعاته.

6. حرق الرموز المعادية: أسلوب اتّبعه القرآن الكريم مع قادة الكفر والطغيان من أمثال فرعون وهامان والنمرود وأبي لهب، إذ نرى الحملة الإعلامية القرآنية تتصدى لهم وتصوّر مصيرهم المأساوي وأتباعهم وما جنوه من مآسي على الإنسانية بانحرافهم واستكبارهم وبالجملة فإن مواجهة الإشاعات والأكاذيب المضادة لمجتمع المسلمين يمكن إيجازها فيما يلي من نقاط:

أ- عدم تصديق الإشاعة، أو الكذب، أو حتى الاعتماد عليها، وأن ذلك محرم بنص القرآن في آية (النبأ) من سورة الحجر.

ب- تكوين قدرة نفسانية وقناعة في المجتمع حتى لا يتأثر بالشائعات والأكاذيب وأساليب الترويج المضللة.

ج- عدم نقل مضمون الأخبار الكاذبة حتى لا تتم المساهمة بدون شعور في نشرها بقول: (يقولون كذا... وسمعتُ كذا... !) لمنع الضرر ودرء المفسدة.

د- الإعلامي المهني عليه المبادرة والسبق إلى الرأي العام لتقديم الحقيقة لدحض الكذب من تلقاء نفسه من أضواء الحق الكاشفة.

هـ- مصادر الأخبار الكاذبة (كالوكالات والإذاعات المضللة) وغيرها إن تكررت منها مثل هذه الأخبار لابد من فضح حقيقتها لينفضّ الجمهور عنها. فقد جاء في الخبر: «**قولوا في الفاجر ما فيه ليحذره الناس**».

والفيصل في الأمر كله في إيصال الحقائق إلى العامة بما لا يدع مساحة يستغلها الكذب، أو الخداع والتضليل.

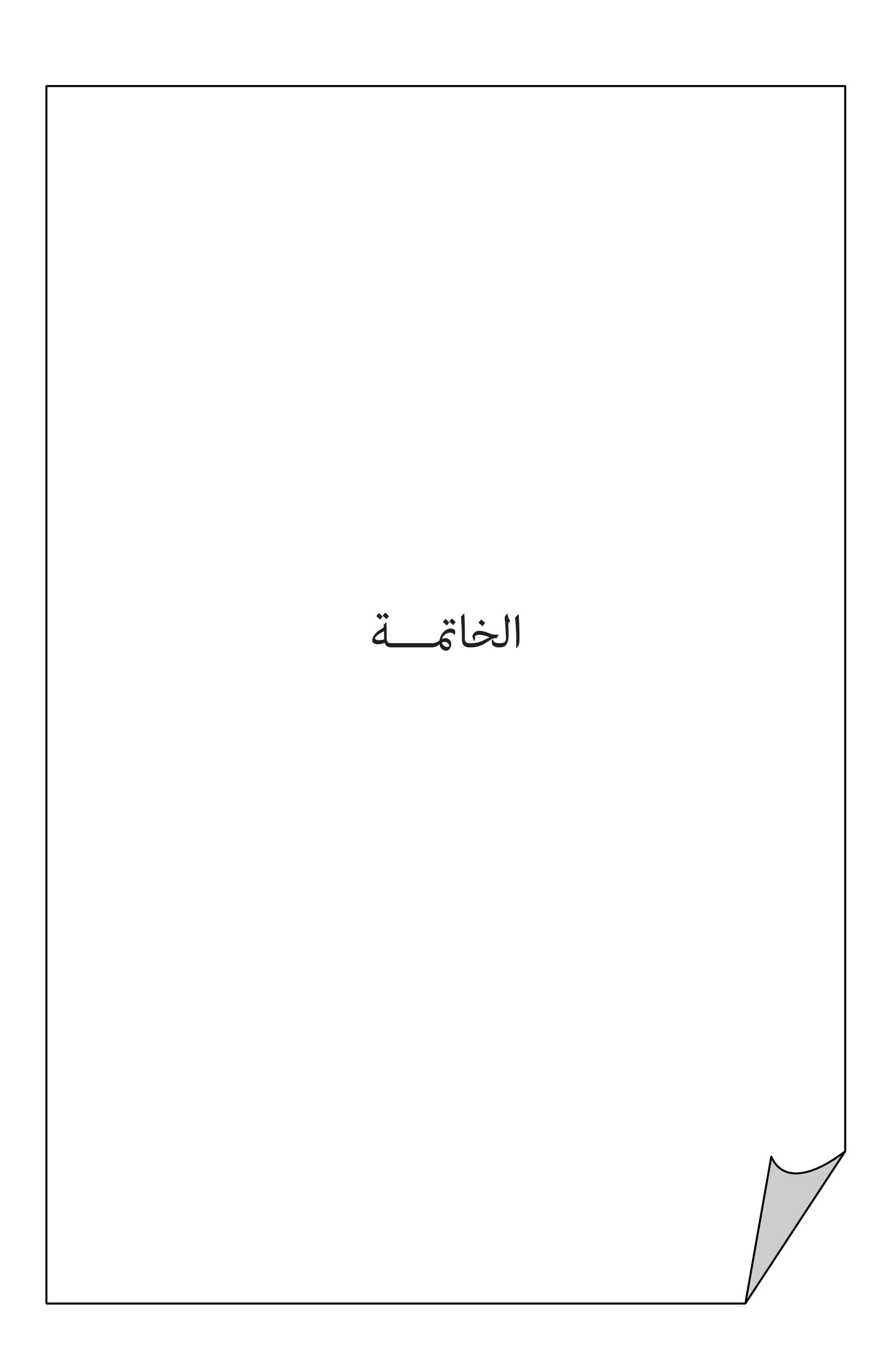
هكذا نرى أن ميدان الاتصال المباشر واسع المجال في الإسلام، حيث كان اتصال الأنبياء والرسل عليهم صلوات الـلـه وسلامه كله اتصالًا مباشرًا مواجهًا شفاهيًّا بينهم وبين من يدعونهم إلى الدين. وتعتبر المناهج المعاصرة للدراسات الإعلامية هذا النوع أقوى وسائل الاتصال وأكثرها فعاليّة لإيصال الرسالة الإعلامية؛ لما فيها من تفاعل ناتج من المواجهة والمباشرة وتلقي رد الفعل الفوري ورجع الصدى المستمر وتعديل الخطاب الإعلامي آنيًّا وإقناع الطرف الآخر بالحجة والبرهان والدليل.

فالنظام المشترك من الرموز في الاتصال المباشر دائمًا هو اللغة التي يتخاطب بها القوم , ويعطي المتقابلان في الاتصال المباشر كل منهما كامل انتباهه للآخر من خلال تبادل الرموز اللفظية وغير اللفظية بالحركات الجسمية وتعبيرات الوجه، فيتم تبادل الرسائل بما يفيد

الاهتمام بمواصلة الاتصال بين الطرفين [28]، وفي الاتصال تكون الحاجة للاتصال نابعةً من الرغبة في التأثير على الآخرين والعطف عليهم بما هم فيه من الضلال لإنقاذهم منه، ويتطلّب ذلك صدقًا وأصالة وثقة تؤدي إلى تغيير المفاهيم والاتجاهات والأفكار.

* * *

(28) الإعلام القرآني، مرجع سابق.



الخاتمـــــة

خاتمة

نستطيع أن تخلص مما سبق عرضه في هذه الدراسة إلى أن الإطار الغيبي الذي يجري فيه الاتصال بين الإنسان وربه بواسطة رسله لنقل رسالة الدين في كتبه، لم تضمِّنه الدراسات الإعلامية المعاصرة ضمن منهج الاتصال، رغم أنه تاريخيًّا هو أول أنواع الاتصال المعرفي الذي نقل كمًّا هائلًا من المعلومات والقيم والأفكار إلى البشرية.

والعيب ليس في طبيعة الدراسات، ولا ميدانها، ولكنَّ العيب في المناهج البحثية المتبعة التي قَصُرت عن إدراك علم موجود قائم ماثل، لم تتساءل عن كيفية وصوله إلى الناس، وإن علمته لم تجعل ذلك مدرسة مستقلة في الدراسات الاتصالية.

إن مؤسسات البحث العلمي - الإسلامية منها على وجه الخصوص- معنيَّة بالدرجة الأولى بمزج العلوم والمعارف الشرعية والعقلية، حيث إن كلا النوعين لا قوَام لأحدهما بدون الآخر.

إن الوحي وأحواله من مباحث علم العقيدة والرؤيا وأنواعها جزء من الإيمان بالغيب في الإسلام، ولكن أحدًا من الباحثين الإعلاميين المعاصرين لن يلقي بالًا لطريقة وصول هذا النوع من

العلم (كحقل دراسة) جدير بالتفصيل والتحقيق والتشريح، وإن ما حاولنا القيام به في هذه الدراسة إنما هي أولى الخطوات على طريق ربط العلم المعنوي بالعلم التجريبي. إن التسليم بأن العلوم الاجتماعية- والتي حقائقها هي الأخرى نسبية بما تقوم به من دراسة العينات- تعطي وحدها العلم بالمدركات العقلية والوجدانية كما في علم النفس مثلًا سيكون خطًا علميًّا لا يغفر.

إن العلم بالمدركات العقلية والوجدانية لا يقتصر على علم النفس أو التربية، أو الاجتماع، وإنما للدراسات الإسلامية عامة وعلوم العقائد خاصة دورًا في هذا المضمار يساهم به في كشف حقائق الإعلام بالدين وقيمه ومعارف الإيمان وكيفية وصوله إلى الفرد المسلم.

إن الدراسات المعاصرة ومناهجها لما نشأت في بيئة فصلت بين العقل والدين، وحصرت الدين في الكنيسة، علينا نحن المسلمين أن لا نقبل مداخلاتها المتناقضة في العلوم الاجتماعية وسائر المعارف العامة بالتسليم المحض ؛ لأن من شأن مثل هذا التسليم أن يجعل إقصاء المعرفة الدينية من الحقل التطبيقي أمرًا مشروعًا ومقبولًا عمليًّا وعلميًّا، وهذا ما لا نرضاه فوق كونه ليس صحيحًا.

وهذا البحث قصد أن يجعل للمباحث الشرعية مداخل نظرية في المعرفة الاجتماعية الخاصة بعلوم الاتصال والإعلام مع ما تتضمنه

هذه المباحث من إيمانيات وثوابت ومسلمات، فالعلم المعاصر الذي يتجنب البحث والتنقيب علميًّا في ظاهرة (تاريخية مهمة) مثل الوحي الذي نزل على الأنبياء وفي ظاهرة متكررة بين عوام الناس مثل (الرؤيا) واستنباط الحقائق من لطائف الحكم القرآنية عليه أن يعرف بأنه علمٌ قاصرٌ، وقد آن الأوان للمسلمين أن يرتادوا الكشف العلمي وقد تأبطوا الإيمان واليقين بحقائق عقيدتهم، ومن شأن مثل هذه الدراسات أن توثق العلائق بين الحضارات كما فعلت القصص الفلسفية الصوفية التي أثرت على أوربا مثل قصة (حي بن يقظان) لابن طفيل (ت 1085م). وكانت تهدف أساسًا إلى التوفيق بين الفلسفة والدين. وتبيّن أن التأمل العقلي والإيمان الحقيقي طريقان يؤيدان في النهاية إلى الاتصال الوثيق بالله تعالى.

وقد نشرت للقصة ترجمات إلى اللاتينية في أكسفورد سنة 1671م، خرجت من جعبتها ترجمتان للقصة إلى الإنجليزية، وكما فعلت الخرائط الجغرافية التي وضعها الشريف الإدريسي للكرة الأرضية في القرن الحادي عشر والتي تبيّن منها أنه كان يعلم منابع النيل قبل صمويل بيكر وليفنقستون.

* إن قليلًا من الثقة بالنفس تجعل من بحّاثة الدراسات الإعلامية يجعلون الأُطُرْ النظرية لدراساتهم - ولو في جزء يسير منها - هو

(الإيمان بالغيب والوحي والرؤيا الصادقة والمنبر والمسجد والحكمة والشعر والموعظة والبلاغة القرآنية والنبوية)، ووسائل الاتصال المباشر تظل هي الأقوى والأكثر فعالية وأثرًا بشهادة أهل العلم المعاصر أنفسهم وإجماعهم أيضًا بأنها أكثر وسائط الإعلام الحديثة جماهيرية.

* إن المقاصد الأصلية لهذه الدراسة ؛ التوسيع من نطاق مجال الدراسات الإعلامية والاتصالية ؛ وجعل العلوم والمعارف الإسلامية مصدرًا من مصادر هذه الدراسات ؛ وجعل الباحثين في هذه العلوم مساهمين مقتدرين في الدراسات الإعلامية والتي طالما تَورّعوا عن الخوض فيها، واعتبارها شأنًا يَهُمُّ غيرهم.

وخلاصة القول في هذه الخاتمة:

* إن الكون بنظامه الرباني في تنسيق إلهي ناجم عن اتصال المعرفة الإلهية بالإنسان عن طريق الوحي الذي هو أرقى نماذج الاتصال وأقدمها.

* إن الرسالة الإلهية الخاتمة بين ظهرانينا نتيجة لهذا الاتصال المعرفي، ولم نقم هنا من إضافة علمية إلا بتقديمها والتعريف بها بمنهج وصفي اتصالي استدلالي مزجنا فيه بين البحث العلمي والبحث الشرعي، (أي طرق البحث العلمي ومناهج البحث الشرعي).

* هذا المزج المنهجي كانت دواعيه البحثية هي في مرحلة التحليل والتعليل الذي يقتضيه أي علم.

* ثم التعريف الوصفي الاستدلالي (بالاستقراء) عن طريق التحليل العقلي - والعقل أداة رئيسة في البحث الشرعي، أيضًا والعلمي - والتدليل بالعِلّة المعرفية باستخدام النصوص النقلية من الكتاب والسُنَّة وملاحظة الظاهرة واستقراء نتائجها.

* فقصدنا:

أولًا: جعل علوم الشريعة مصدرًا مهمًّا من مصادر الدراسات الإعلامية.

ثانيًا: إخراج دراسات وأبحاث (علوم الاتصال) من أبراجها التي تقوقعت فيها فلم تستطع الاستفادة من المعارف الإسلامية بما يتفق وثراء هذه المعارف ومصادرها.

إذًا إنَّها دعوةٌ لمعرفةٍ وتأمُّلٍ لآياتٍ في الآفاقِ وفي الأنفس.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

1. السُنَّة النبوية (صحيح البخاري، صحيح مسلم، وبقية الكتب الستة).
2. تفسير ابن كثير (اختصار محمد علي الصابوني).
3. أنور الجندي، عالمية الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1977م.
4. عبد الـلـه بن عبد الرحمن بن علي الشريف، التعليقات المفيدة على العقيدة الواسطية، دار طيبة، الرياض، 1984م.
5. لجنة تأليف بمؤسسة البلاغ، مرتكزات أساسية في الإعلام القرآني، طهران، 1977م.
6. عبد العزيز شرف، الإعلام ولغة الحضارة، دار المعارف، القاهرة، 1977م.
7. طه حسين بك وآخرون، التوجيه الأدبي، القاهرة، ب ت.
8. مناع القطّان، تاريخ التشريع الإسلامي، بيروت، 1996م.
9. عصام سليمان موسى، المدخل في الاتصال الجماهيري، أربد، الأردن، 1986م.

فهرس الكتاب

هــذا الكــتاب

هذا الكتابُ لا يُعتَبر قاعدةً أساسيةً لتأصيل المعرفةِ الاتصاليةِ في القرآن الكريم بربطها بعلم الاتصالِ والإعلامِ وحَسْب، وإنَّما يُعتَبرُ فتحًا جديدًا في نظرياتِ الإعلامِ والاتصال.

ذلك ليس ادعاءً، ولكنَّه واقع؛ لأنَّ هذه المساهمة التأصيلية هي أول مساهمة علمية تطبيقية اعتمدت على الملاحظة للتجارب الغيبية في الوحي والرؤى التي تعرض للأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، واعتمدت على التطبيقات التعبدية لشعائر الحجّ والعمرةِ والجمعة والمديح، والتواصل الشفاهي بين أفراد المجتمع المسلم، كقاعدةٍ تطبيقية لتجريب الرسالة الاتصالية في المجتمع، وتخريج نظرية متكاملة في الاتصال عبر وسيط، والاتصال المباشر والاتصال التعليمي التعبدي في إطار نظري متكامل.

إن الدراسة وإن أحاطت بالموضوع الذي تعرَّضت له لا تدِّعي اكتمال تفصيلات النظرية الإسلامية في الاتصال في ثناياها، **وإنما بحسبها أن تقول:** إنها قدَّمت نموذجًا ومعقولات نظرية متكاملة البناء في مقدِّماتها ونتائجها، جديرة بتدريسها لطلاب كليات ومعاهد علوم الاتصال وإسلام المعرفة باعتباره عملًا غير مسبوق ورائدًا.